الدين والإيمان والمعرفة

من وجهة نظر إسلامية

مجموعة كتاب

تقديم

د. فرج محمد عبد الرحمن

الكتاب: الدين والإيمان والمعرفة.. من وجهة نظر إسلامية

الكاتب: مجموعة كتاب

تقديم: د. فرج محمد عبد الرحمن

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الدين والإيمان والمعرفة.. من وجهة نظر إسلامية / مجموعة كتاب,

تقديم: د. فرج محمد عبد الرحمن

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٩٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٢٦٤ – –٩٩١ ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٠٠٧ / ٢٠٢١

الدين والإيمان والمعرفة

من وجهة نظر إسلامية

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

الدين والإيمان والمعرفة

د. فرج مُحَمَّد عبد الرحمن

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ثلاثة أبحاث قيمة، صدرت منذ نحو ستين عاما في مجال الدراسات الإسلامية، البحث الأول هو "الدّين عندَ اللهِ والأنبياء" للكاتب "فرج الله أبو العلا"، أما البحث الثاني فعنوانه " الإيمان في القرآن الكريم" للكاتب " مُحَمَّد رجاء عبد المتجلي"، وأخيرا " المعرفة في ظل الاسلام" للدكتور "عبد الحكيم المغربي".

وقد يسأل القارىء عن الرابط بين الأبحاث الثلاثة، أو مبرر جمعها معا في كتاب واحد، وكلها لمؤلفين مختلفين، والحقيقة أن ثمة رابطا عميقا يربط الكتب الثلاثة كحبات المسبحة، فالكتب متكاملة يفضي كل كتاب منها إلى الذي يليه، ووفق الترتيب المنشورة به في هذه الطبعة الخاصة ، فأول هذه الكتب يبحث في معنى الدين على إطلاقه، بينما الكتاب الثاني يبين أوجه الاختلاف بين التدين والإيمان من خلال آيات القرآن الكريم، فليس كل مسلم مؤمنا، وأخيرا يجيء كتاب الدكتور عبدالحكيم المغربي ليناقش فكرة "المعرفة" من منظور إيماني إسلامي، وهكذا تفضي حبات المسبحة الفكرية – التي يمثلها هذا الكتاب – بعضها إلى بعض في تكامل وتناغم يحقق الفائدة العلمية والدينية المرجوة من جمع الكتب الثلاثة معا في سفر واحد.

الدين

يرى الباحث الإسلامي "فرج الله أبو العلا" أن الدين هو القانون السماوي الذي أنزله الله عز وجل للبشر جميعاً منذ آدم وإلى أن تقوم الساعة. والدين هو الذي يحدد العلاقة بكل معانيها بين الخالق والمخلوقين، وما يترتب على ذلك من ثواب وعقاب كما أبان ذلك أدب القرآن"يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا.

ويخلص في بحثه القيم رغم إيجازه " الدين عند الله والأنبياء" إلى الدين معناه بمعناه العام، منذ كان أول دين سماوي على الأرض يتضمن ثلاثة عناصر هي الإيمان بالله الواحد، ثم الإيمان باليوم الآخر، وأخيرا السلوك الذي يجب أن يسلكه كل امرىء ذي دين ويرى أن هذا السلوك يعتبر ترجمة عملية لمفهوم الشريعة ولمقاصدها، ويقول أن الخوف أو الحب هما الأساسان اللذان يقومان في نفوس المؤمنين باليوم الآخر أو حين يقوم في النفس إحساس الخوف من حساب اليوم الآخر، يقوم في النفس إحساس الحب الذي شوقه إلى اجتماع اليوم الآخر، ويكون الضمير الذي يصحب الإنسان حياته فيحمله على محاسبة نفسه خوفاً أو حباً ،فالإيمان باليوم الآخر إذن هو الذي ينشيء الضمير في نفس المؤمن، ومن ثم لا يتم إيمان المؤمن إلا أن إن كان ذا ضمير يوجهه في كل ما يعمل ويوجهه في كل ما يترك ويوجهه في كل ما يفكر ويوجهه في كل ما يتمنى ويوجهه ليقاوم شهوات نفسه بغية تقوى الله فالضمير هو القوة الباطنة التي توجه السلوك الإنساني على أساس دستور يستمد قدسيته من الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان

تلك هي الفكرة التي يسعى إلى بلورتها البحث الأول، وهي تقودنا تلقائيا

إلى موضوع البحث الثاني وهو "الإيمان بالله"، وفيه يبدأ مؤلفه "مُحَمَّد عبدالمتجلي" بالتأكيد على أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً، وقد انتسب إليه كل أتباع الأنبياء، ويدلل على ذلك بآيات عدة وردت في القرآن الكريم، ويستخرج – بعد تأمل الآيات – سببين لذلك، أولهما أن الأديان كلها من عند الله عز وجل، والله يحب من عباده الخضوع له وإسلام الوجه إليه، والثاني أن العقائد واحدة في جميع الأديان، وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

كما أن الأديان السماوية كلها قد دعت إلى وحدانية الله تبارك وتعالى، ولا يستطيع أي إنسان أن يقول بغير ذلك، إلا أن هذه الدعوة ما لبثت أن تبدلت وتغيرت وتحرفت، وشابها الكثير من الشوائب الوثنية التي قللت من وضوحها، وعكرت من صفائها، وذلك بما أدخل على رسالات الرسل ودعواتهم من الشوائب الوثنية التي كانت تقوم إلى جوارها، والتي غالباً ما كانت تملك القوة المادية والقوة السياسية إلى جانبها.

وإن أول شيء يجب الإيمان به في الإسلام هو وجود إله واحد، قادر، خالق لكل شيء، مستحق وحده بالعبادة، ومنفرد بالربوبية، وقد استعمل القرآن الكريم طريق المنطق في مخاطبة العقل والوجدان، وإقامة الأدلة والبراهين الداعية إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى. والإسلام لا يقر الشرك، ولا يرضى إلا بعبادة إله واحد، خالق لكل شيء، فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. ويرى أن كتاب الله عز وجل قد وصف الثواب والعقاب في الآخرة بطريقة تبعث على الإيمان بتعاليم الكتب السماوية، والعمل بما رسمته آيات القرآن الكريم من نظم المعاملات.

ويشير الكاتب أيضا إلى أن الإسلام جعل المنزلة العليا في حياة المجتمع

الإنساني للعقل وحرية الرأي، وجعلهما الدعامة التي تقوم عليها كرامة الإنسان وعقيدته الدينية، إذ لا تكون العقيدة ألا عن اقتناع، ولا يتأتى الاقتناع بدون الحرية، كذلك فالقرآن الكريم حين يخاطب العقل؛ ويدعوه إلى الإيمان بالله عز وجل، يوجهه إلى التأمل في مظاهر الطبيعة التي تحيط به، من أرض وسماء، وما يربط هذه المظاهر من وحدة وانسجام، وبالتأمل والتفكير يصل الإنسان وهو موقن إلى استحالة أن تكون هذه المظاهر قد خلقت نفسها بنفسها، أو خلقتها قوى متناقضة أو متعارضة، أو أن يكون الكون مخلوقاً من غير هدف.

وهذا ينسجم مع موضوع البحث الثالث في هذا الكتاب وموضوعه "المعرفة في ظل الإسلام".

المعرفة

يرى الدكتور عبدالحكيم المغربي أن الإسلام انطلق من وجوب إدراك الحقائق (بالمعرفة) وأن تلك المعرفة هي المرادف للعلم، وإن كانت تشمل ما يدرك بالتعليم وما يدرك بالتجربة الذاتية حيث ينتهي جميع ذلك إلى تكوين معارف شؤون الحياة كلها، وبما أن الإسلام في حاجة دائما لمعالجة مقتضيات الحياة، فالضرورة تفرض عليه أن يتعلم ويعرف، وأن يطور معرفته ليتجه دائما إلى الأكمل والأحسن فهو ينقب بفكره عن المشاكل والمعضلات ليواجهها بصراحة، وبما أن الإسلام يأخذ معارف السابقين ليركز على يقينها تجربته، أو ليزن مقدار فهمه وعمقه لإدراك الأشياء ومقدار عمق تفكير من سبق، فهو بطبيعة الحال يعتقد مسلمات لا سبيل لمناقشتها بل يجب عليه فهمها واستيعابها كما يعشق آراء تتغير وتتبدل لأنها في حاجة ماسة إلى التطور.

ويرى أيضا أن الدين ليس طريقة إلى المعرفة، وإنما هو المعرفة ذاتها وهو

نظام متكامل، لا يعتمد على الشعور والبصيرة ليست بين الحقيقة، وموضوع معرفته تحديد الحقيقة، وبيان رسالة الإنسان، وهو يسلك طريق القلب وطريقة العقل معا ويأخذ من الطرفين والمعرفة الدينية ليست شعورا بالحقيقة وإنما هي شعور وشرح وتوضيح ولأن المعرفة قائمة الذات يعرفها الإنسان بواسطة العمل المسلم فكل فرد يولد على (الفطرة) قابلا ليكون نموذجا صالحا وليتحمل عبء ما سبقه من الأحداث البشرية، وطبيعي أن الخصائص البيولوجية والفسيولوجية الوراثية مهما كانت عظيمة الأثر في تكوين الإنسان، فهي لا تجعله (قابلا) لتحمل عبء الخطيئة الإنسانية على نهج بعض المذاهب القديمة.

ويمكن في الإسلام وضع خط فاصل بين ما هو مبدأ أخلاقي، وما هو قانون اجتماعي حتى يضع الإنسان حدودا بينهما، نعم وضع علماء التشريع مبادئ لتحقيق ملاءمة بين التطور الاجتماعي والشريعة الإسلامية تستند على الإجماع والقياس والاستحسان، وهي في الواقع تشمل الأخلاق والقانون وتظهر في تطبيقات الزكاة والصوم والحج والمطبوعة بأوامر لا يسودها تغيير، كما يظهر بالأولوية في مسائل القانون الذي هو عرضة للتعديل، وفي تغير الظروف للتاريخ (التحرك الديني) ومن هذه الوحدة في الشريعة عن فصم الدولة عن الدين في الإسلام وأصبح ضروريا تدين الدولة، كما أن هذه الوحدة الاجتماعية وحدت بين المعرفة الفلسفية والأخلاقية والقانونية في عقلية المسلم، الذي يدعوه الإسلام إلى مبدأ (التوحيد) ومعرفة التوحيد، والإيمان به، سواء في المسائل ذات الاتصال بالعقيدة (الإلهية)، أو ذات الاتصال بالأخلاق والقانون ليتم الانسجام في شخصية المسلم.

والمعرفة في الإسلام هي كل ما يجب معرفته لا ما عرف وتجمد في الكتب، أي أن الإسلام يريد عقلا شغوفا بالمعرفة والبحث فديناميكيته لا تعمل إلا

بالحجة واليقين، وبذلك توجد بنفسها نقط ارتكاز فكرية ومع الأسف الشديد فالمعرفة جمدت عند كثير من المسلمين، فيجب أن تكون ثورة في مفهوم المعرفة ذاتها لأن المعرفة في الإسلام معرفة ما يجب معرفته ويقتضي ذلك التنقيب عن المجهول، وتطوير ما هو معلوم، فكل معلوم يتعرض للتبديل والتغيير حسب تطور الفكر وما يعتمد عليه الفكر، وجمودها يظهر في فهم المعرفة في تجديدها على أنها تكديس ما هو معلوم وشرح ما هو معروف، وبذلك فقد التفكير عنصر الحركة، وعندما تتقدم الحركة الفكرية تعرض الفكر للجمود والمعرفة للركود، حتى يصبح من لبديهي خلق النشاطات الفكرية.

وقد ظهر هذا في اصطلاحات الفقهاء وبعض المحدثين الذين لا يهتمون غلا بروايات المتن وعدم دراسته رغم أن المفكرين المسلمين كابن خلدون والغزالي أثاروا الانتباه إلى خطر هذا الجمود على الإسلام، ولا يستطيع مؤرخو الحضارات الإنسانية أن يتجاوزوا عن طريقة المعرفة التي انبثقت منهجيتها عن القرآن مباشرة من غير تسلسل في تاريخ الأديان، وتلك هي المعجزة وقد ظلت المعرفة (في ظل الإسلام) عاملا تقدميا لتطوير الحضارة الإسلامية، فالمعرفة القرآنية هي ممارسة التفكير الصرف لينسجم مع المعطيات الخارجية بصورة استقرائية مستندة إلى مقدمات تحققت بالتجربة وقورنت بمثل التعاليم الإسلامية، هذه المعرفة بقيت النموذج الصادق المحتدي في التفكير الإسلامي كما بقيت نموذجا صادقا للتفكير الإنساني.

الدّين عندَ اللّهِ والأنبياء

فرج الله أبو العلا

عَنَاصِرُ الدِّينْ

يتضمن الدين معناه بمعناه العام، منذ أول دين سماوي على الأرض ثلاثة عناصر هي:

الأول: الإيمان بالله الواحد.

الثاني: الإيمان باليوم الآخر.

الثالث: الشريعة أو السلوك الي يجب أن يسلكه كل ذي دين.

العنصر الأول: وهو الإيمان بالله الواحد فإننا ومنذ أول رسالة وكل الرسالات السماوية نشهد أن لا إله إلا الله.. ففي النسخ المتداولة من التوراة في سفر التثنية في الإصحاح السادس نجد النص:"الرب إلهنا رب واح". وفي النسخ المتداولة من الإنجيل في إنجيل متى في الإصحاح التاسع عشر نجد النص:"فقال له لماذا تدعوني صالحاً، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله. ولكن إن أردت أن تدخل الحياة يولد. ولم يكن له كفواً أحد". و«لا إله إلا الله» ليست كلمة تقال ولكنها كلمة وعقيدة ومفهوم له أثر في السلوك. تعني أنه لا رجاء إلا إلى الله ولا مخافة إلا من الله ولا معبود إلا الله. الله وحده هو الذي يملك مصيرنا. الله وحده هو الذي يأمرنا وينهانا. الله وحده هو الذي يكلفنا أو

يرفع عنا التكليف. وهو وحده الذي نرجوه.

«لا إله إلا الله» يجب أن يكون لها مفهوم أعمق وأبعد أثراً في النفس وفي السلوك أكثر من ترديدها كلمة والإيمان بهما عقيدة مفهومها ومدلولها وأثرها السلوكي أن يكون المؤمن فوق كل المخافات، أن يكون أقوى من كل أسباب الخوف ومن كل أسباب البطش ومن كل أسباب الجبروت، ذلك لأن الله حين يفرض علينا أن نؤمن «بأنه لا إله إلا هو» يفرض علينا أن نتحرر فلا نذل لمخلوق يريد أن يستبعدنا وأن نقوى فلا نضعف أمام مخلوق يريد أن يسيطر علينا وأن نسمو فلا نتضرع لأحد غير الله الذي خلقنا ويملك مصيرنا.

«لا إله إلا الله» معناها الحرية والقوة وكرامة الإنسان. هذا هو معنى الإيمان بالله والاعتراف بوحدانيته. فالإيمان بالله يشعر القلب بالطمأنينة والثقة والسكينة وارتياحه لما يعتقد الله حق وصدق. والإيمان بالله يعني الإيمان بالوجود المنسوب إليه وبالقدرة التي يتصف بها وبعلمه وحكمته ورحمته وكتبه ورسله. والإيمان بالله ووحدانيته هو دعوة الرسل والأنبياء جميعاً ولقد وضح القرآن الكريم تلك الحقيقة فبين:

- أنها أساس دعوة نوح، كما يفهم من قوله تعالى:"ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم".
- أنها دعوة هود إلى قومه عاد كما يفهم من قول الله تعالى:"وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون".
- وهي دعوة صالح، إلى قومه ثمود كما يفهم من قول الله تعالى:"وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب".

– وهي دعوة إبراهيم كما يفهم من قول الله: "إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلفون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون".

والعنصر الثاني: الإيمان باليوم الآخر، وهو اليوم الذي لا يوم بعده، لأنه لا انتهاء له.. إنه يوم الحساب وما يترتب عليه من ثواب أو عقاب. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:– "يوم يقوم الناس لرب العالمين". "يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً". "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً"."يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب". "يوم تبيض وجوه وتسود وجوه". "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين". ومقتضى الإيمان بهذا اليوم الآخر أن يحاسب كل إنسان نفسه قبل أن يأتي يوم حسابه ومحاسبة كل إنسان نفسه قبل أن يأتي يوم حسابه تنشيء في نفوس المؤمنين إحساسين يختلفان بعض الاختلاف أو يتقاربان بعض التقارب أحدهما الإحساس بالخوف والآخر الإحساس بالحب!

أما الإحساس بالخوف: فيحمل المؤمن على ألا يجاوز في كل ما يحمل وفي كل ما يترك حدود الله.. حذر الحساب في اليوم الآخر. فيقدم أو يحجم ويفعل أو يمتنع.

أما الإحساس الآخر: فهو إحساس النفوس الصافية النقية الشجاعة المؤمنة بالله حق الإيمان. وهو إحساس يحملها على قصور كامل لليوم الآخر. فهو أمامها بصورته الكاملة في كل لحظة تتمثله فتتشوقه تشوق الحب. وفي إطار ما

يتمثل من صورة اليوم الآخر تكون صورة أعمالها ويكون ما تفعل أو تترك لأن ما تفعله وما تتركه هو تمام تلك الصورة التي تتمثلها أبداً تمثل المحب المشتاق.

الخوف أو الحب هما الأساسان اللذان يقومان في نفوس المؤمنين باليوم الآخر أو حين يقوم في النفس إحساس الخوف من حساب اليوم الآخر. يقوم في النفس إحساس الحب الذي شوقه إلى اجتماع اليوم الآخر. ويكون الضمير الذي يصحب الإنسان حياته فيحمله على محاسبة نفسه خوفاً أو حباً.

فالإيمان باليوم الآخر إذن هو الذي ينشيء الضمير في نفس المؤمن. ومن ثمة لا يتم إيمان المؤمن إلا أن كيون ذا ضمير يوجهه في كل ما يعمل. ويوجهه في كل ما يترك. ويوجهه في كل ما يفكر. ويوجهه في كل ما يتمنى. ويوجهه ليقاوم شهوات نفسه بغية تقوى الله فالضمير هو القوة الباطنة التي توجه السلوك الإنساني على أساس دستور يستمد قدسيته من الإيمان باليوم الآخر...

والعنصر الثالث: هو السلوك الذي يجب أن يسلكه كل ذي دين الذي نعبر عنه أحياناً بالشريعة ، والسلوك هو مجموعة القوانين الإلهية التي فرضها الله للسير على نهجها في كل ما نملك في حياتنا وهي التي فرضت علينا الفرائض، وحرمت علينا المحرمات، ومهدت لنا النهج الذي نسلكه، وخوفتنا مما يجب أن نخاف وحببت إلينا ما نأمل. ومن ثمة كانت الشريعة هي ميزان صلاح المجتمع ومن أجل ذلك يمكن تسميتها ميزان السلوك. هذه العناصر هي عناصر كل ذي دين. ولننظر الآن إلى الرسالات السماوية التي نزلت على أنبياء الله ورسله منذ كان أول نبي على الأرض نوح عليه السلام. إلى أن كان آخر نبي في الإنسانية.. مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فإننا سنجد أن الدين في كل هذه الرسالات كان هو تلك العناصر الثلاثة:

– الإيمان بالله الواحد ليرتفع المؤمن بنفسه فوق كل مستويات الضعف والخوف

والرجاء.

– الإيمان باليوم الآخر الذي ينشيء الضمير الذي يوجه المؤمن فيما يأخذ ويدع من أشياء الحياة.

– السلوك الذي يربط بين المؤمن والمجتمع الذي يعيش فيه بالرباط الذي وضعت موازينه الشريعة.

ذلك هو الدين عند الله منذ كان الدين. هو رسالة نوح وهو رسالة إبراهيم وموسى وعيسى. وهو الإسلام رسالة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام.

لم يزد على ذلك شيئاً في رسالة من الرسالات ولم ينقص شيئاً، فالمجتمع الإنساني حين بدا على الأرض بآدم وزوجه ثم بأولادهما. ثم بالذرية الأولى كان مجتمعاً بسيطاً كل البساطة، لم يكن يقتضي أن يحسن الناس سلوكهم فيما بينهم إلا أن يأخذوا مالهم ويعطوا لغيرهم ماله. ومن أجل ذلك كانت شريعة نوح عليه السلام لا تتضمن – بعد الإيمان بالله واليوم الآخر – أكثر من الوفاء بالكيل والميزان وما يتصل بوفاء الكيل والميزان من ضرورات المجتمع البسيط الذي يعيش فيه آحاد قليلة أو آحاد كثيرة. والأمر كما يقول علماء الاجتماع: أن الإنسانية بدأت طفلاً ثم ترقت ترقي الطفل. من الطفولة، إلى الصبا إلى اليفاع إلى الشباب. تلك كانت الشريعة، أو السلوك الذي فرضه الله على عباده. فكانت الأوامر لأول عهدهم بالمجتمع الإنساني أوامر سهلة بسيطة تتلاءم مع حاجات ذلك المجتمع السهل البسيط ثم نما المجتمع وتطور وتعقد شيئاً ما فكانت شريعة أخرى دون أن يتغير جوهر الدين. وظل الدين هو الدين بعناصره الثلاثة:

الإيمان بالله، وباليوم الآخر، والشريعة التي تلائم حال المجتمع المتطور والتي

ظلت تترقى من رسالة سماوية إلى رسالة، ومن نبي إلى نبي، بالتفصيلات التي تقتضيها حياة المجتمع ونموه ومصالحه حتى بلغت الإنسانية مرحلة اليفاع في عهد موسى عليه السلام حيث بدأت تأخذ طابعاً جديداً يقتضيه ما بلغته الإنسانية من تطور فكان العنصر الأصيل في الشريعة هو القصاص. يتضح في الشريعة من المباديء هو القصاص: النفس بالنفس، والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسن بالسن،. شيء بشئ وشيء لشيء. تطور يلائم المجتمع الإنساني في ذلك الوقت الذي كانت فيه نبوة موسى عليه السلام. والقصاص ضرب من العدالة. العدالة المادية المحسوسة. والعدالة بكل ضروبها مثل إنساني كريم ولكنها ليست كل المثل. أن من شأن العدالة المادية، عدالة خذ وهات، عدالة كل جرح بجرح أن تجعل مقياس الحياة مادياً حتى لتكاد تعطل ما يجب أن يكون بين الإنسان والإنسان من العطف ومن الرحمة ومن التعاون ومن التسامح. فلما وعت البشرية درس العدل المادي الذي تمثله شريعة القصاص التي نزلت على موسى عليه السلام كان لابد أن يكون من آثارها قسوة في بعض القلوب، وأثره في بعض النفوس فنزلت شريعة عيسى عليه السلام. ولقد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة معترفاً بحق من سبقه من الأنبياء والرسل. فقد قال: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل"[1]. ويقول القرآن الكريم في ذلك الشأن: "وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين".

وكانت شريعة عيسى عليه السلام تلائم المجتمع الذي أرسل له عيسى عليه السلام. المجتمع الذي لم يعرف من قوانين السلوك الإنساني إلا العدالة المادية

(١) إنجيل متى: ٥ – ١٧.

ومن ثمة ركزت الشريعة المسيحية كل التركيز على الرحمة وعلى العطف وعلى التسامح وعلى التعاون. وعلى ما يحكي من قصة الخد الأيمن والخد الأيسر في إنجيل متى الإصحاح الخامس (٣٨ ٤٤): "سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سالك فأعطه. ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده..سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لأعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم".

العدالة المادية في شريعة موسى. والعطف والرحمة في شريعة عيسى. صورة من العدالة في شريعة موسى. وصورة من الرحمة التي لا يتم العدل إلا بها في شريعة عيسى.

والعطف والرحمة والتسامح مثل إنسانية كريمة، ولكنها ليست كل المثل فقد يضيع العدل بالرحمة. قد يضيع التضامن بالعطف. قد تضيع بالتسامح حقوق وتذل كرامات. فالعدل وحده ليس كل الفضيلة. وقد يكون العطف وحده صورة من الرذيلة! ولكن الإنسانية يجب أن تلقن درس العدل فإذا وعيته وجب أن تلقن درس الرحمة. درسان يجب أن يتعاقبا بآثارهما في كل نفس لتتكامل إنسانيتها. وكذلك كان تأديب الله لنا وكما أعقبت شريعة القصاص في نفوس اليهود إيماناً بالمادة أورثتهم غلظة وقساوة وأثرة، أعقبت شريعة الرحمة في النصرانية رهبانية وانكساراً ورءوساً مطأطأة وخدوداً تتناولها الأكف من يمين إلى شمال حتى أننا نرى أنه عندما كان الإقطاع يمر بأبشع مراحله في أوروبا وفي روسيا بوجه خاص حيث يموت الآلات من الجوع كل عام ويموت الملايين بالسل

وغيره من الأمراض بينما يعيش الإقطاعيون في ترف فإذا حاول الكادحون رفع رءوسهم أو تململوا ليشكوا الظلم كان رجال الدين يسرعون إليهم بالنصيحة: "ما سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا أقول لكم: لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً".

وإذا كانت الإنسانية لم تجد كمالها في العدل المادي وحده، فكذلك لم يتحقق لها كمالها في العصر الروحي وحده لأن كليهما لم يكن إلا مرحلة من مراحل تربية النفس الإنسانية لتبلغ كمالها بعد. وكان تعاقب هذه الشرائع لتكون كل شريعة كمالاً على الشريعة التي سبقتها حتى تبلغ الإنسانية في نموذها المرحلة التي تقتضي أن تكون شريعتها دستوراً عاماً ودائماً للإنسانية. فعيسى عليه السلام يقول: "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس والأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل". والرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام يقول: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[1].

وهنا أوضح أن الرسل التي سبقت الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام أرسلت إلى أقوامهم فقط. فنجد في النسخ المتداولة من التوراة والأناجيل النصوص التي تؤكد ذلك:

– تقول أسفار التثنية عن رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

"وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك. فاجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة".

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ.

– وفي أسفار الخروج تردد عن سيدنا موسى أن الله سبحانه وتعالى إنما أرسله لبني إسرائيل بالنص: "وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني يهوه إله آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم".

– وفي إنجيل متى عن رسالة سيدنا المسيح: "هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلاً إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا. بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة".

– وفي الإنجيل يقول: "فأجاب وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة".

– وفي هذا الشأن أيضاً بين القرآن الكريم أن الأنبياء والرسل قبل الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام إنما أرسلوا إلى أقوامهم فقط. فيقول الله عز وجل:

– "ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين".

– "وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون".

– "ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون".

– "ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فقال إني رسول رب العالمين".

– "وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم".

ومما هو واضح أن كافة الرسل قبل الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام أرسلوا إلى أقوامهم فقط. والقرآن الكريم يقول: "ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم». أما عن الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فيقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

– "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً

منيراً».

– "قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً".

– "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

بالإضافة إلى هؤلاء الأنبياء والرسل فإن هناك من الرسل من لم يرد ذكرهم في الكتب المقدسة. ففي كتابات العلامة الفرنسي الكبير "موريس ديلافوس" (١٨٧٠ – ١٩٢٦) فهو يذهب إلى أن الزنوج الذين يقال عنهم أنهم لا دين لهم، هم في الواقع من أشد الشعوب في العالم تديناً. ويذهب أيضاً إلى أن الأفريقيين يطلقون على الخالق الأعلى صفات نراها في الأديان السماوية الكبرى منها: الخالق، الهادي، الحفيظ (على العالم). والقرآن الكريم يفسر لنا ذلك بقول الله سبحانه وتعالى: "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك".

والله سبحانه وتعالى أيد رسله بالمعجزات التي تدل على صدقهم في دعوى أنهم مبلغون عنه، وهذه المعجزات يستنوي الناس جميعاً في العجز عن الإتيان بمثلها، حتى الأنبياء أنفسهم لأنها من عمل الله لا من عمل أحد سواه. فلا بد لموسى في انقلاب عصاه حبة تسعى. ولا في فرق البحر بهذه العصا. ولا يد لعيسى في إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى. ولا بد لمحمد في القرآن الذي كان وما يزال وسيظل معجزة الجن والإنس. فالمعجزات آيات من الله يظهرها على أيدي من اختارهم واصطفاهم لإبلاغ رسالته لتكون شواهد صدق على أنهم صادقون في دعوى أنهم أنبياء مرسلون وأن ما يقولونه حق وصدق.

وإذا تأملنا في المعجزات التي أيد الله سبحانه وتعالى رسله بها. فإننا نرى أن الرسالات التي سبقت رسالة الإسلام كانت تعتمد في الدعوة والإقناع على

المعجزات الحسية. وبعبارة أخرى. أن معجزات الرسل قبل الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام كانت معجزات حسية وخوارق للعادات. وهذه المعجزات المادية هي وقتية. أين هي الآن ليؤمن بها من يراها وقد لا يؤمن بها من يسمع عنها. أما معجزة الرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فهي القرآن الكريم وهي باقية إلى الأبد. والقرآن الكريم أبعد المعجزات المادية تماماً عن مجال الإيمان. ومن هنا أيضاً يتضح أن الرسالات التي سبقت رسالة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام هي رسالات كانت لأقوام إذا رأوا المعجزات آمنوا. أما رسالة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام فهي باقية إلى الأبد ومعجزته دائمة باقية يراها الناس في مختلف الأجيال وشتى الأزمان وهي قمة الإقناع تدعو إلى التفكر والتأمل للوصول إلى الحقيقة وتدعو المتشككين إلى إتيان برهانهم. يقول الله عز وجل في القرآن الكريم: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا – ولن تفعلوا – فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين".

وأيضاً يقول سبحانه وتعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً". وأيضاً يقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا أن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون". وهنا ألفت النظر إلى أن وظيفة الرسل لا يعدو الإرشاد والتعليم عن طريق الوحي ولهم أسمى مكانة الاحترام والقيادة الروحية التهذيبية، وهم بعد ذلك لا يملكون نفعاً ولا ضراً لأنفسهم فضلاً عن غيرهم. وآيات الله عز وجل في القرآن الكريم تقول: "قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء، إن أنا إلا نذير بشير لقوم يؤمنون". ويقول عز وجل: "فذكر إنما أنت

مذكر، لست عليهم بمسيطر". فالرسل برسالتهم ولم يخرجوا عن طبيعتهم البشرية، وإن كانت قد لحقتهم عصمة الله سبحانه وتعالى فيما يبلغون عنه، وهي درجة اصطفاء لا يرتفعون بها في منزلة البشرية. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

- "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم".
- "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي إنما إلهكم إله واحد". والرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام تجمع رسالته مع عنصري الإيمان بالله الواحد والإيمان باليوم الآخر، الشريعة التي تجمع بين العدل والرحمة. بين القصاص والتسامح. وتفصل في إجمال الدستور الذي يجب أن يسلكه كل إنسان على الأرض ليعيش في وئام مع نفسه وفي وئام مع أهله وفي وئام مع المجتمعات الأخرى. ومن أجل ذلك كان الدين الإسلامي هو خاتمة الأديان لم ينسخ ما قبله، ولكنه كمال لما قبله. فالرسول مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام يقول: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ومن أجل ذلك كان إيمان المسلم برسالة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام يجب أن يسبقها إيمان برسالة عيسى عليه السلام، ورسالة موسى وإبراهيم. وكل رسالات الأنبياء والرسل قبل إبراهيم عليه السلام وبعده. يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".

فالدين عند الله منذ كان أول دين لله على الأرض لم تختلف طبيعته في شيء منذ عهد نوح عليه السلام إلى عهد مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام. هو في كل مراحله عناصر ثلاثة:

– إيمان بالله يؤمنه كل المخاوف.

– إيمان باليوم الآخر يربي فيه الضمير.

– وشريعة تكفل السلام للمجتمع.

لا اختلاف في عنصر واحد من هذه العناصر وإنما تكاملت الشريعة وهي العنصر الاجتماعي في كل رسالة بتطور المجتمع في عهد كل رسول لتكون الشريعة آخر الأمر في الدستور الكامل في آخر رسالة مع آخر نبي.

هذا هو معنى الدين عند الله. وهذا هو مكان الشريعة من الدين باعتبارها العنصر الثالث من عناصر كل رسالة. فلا دين إلا مع الإيمان بالله. ولا دين إلا مع الإيمان باليوم الآخر الذي ينشيء في كل نفس ضميراً يوجهها من داخلها ولا دين إلا مع الشريعة وقد أنزلت الشريعة الكاملة على مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام لتكون دستوراً أبدياً خالداً للإنسانية. والله عز وجل يقول في القرآن الكريم: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً".

وقال الإمام أحمد بسنده: «جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: وأي آية؟ قال قوله: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي".

فقال عمر: "والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها عشية عرفة في يوم جمعة". لقد كمل الدين وعظمت به منة الله على المؤمنين.وقال الله سبحانه وتعالى: "إن الدين عند الله

الإسلام". "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه".

إنه طريق واحد إلى الله سبحانه وتعالى مشى فيه المؤمنون بالله أمة بعد أمة، فمنهم من مضوا فيه إلى غايته يتبعون فيه أنبياء الله نبياً بعد نبي ومنهم من وقف في ثلث الطريق أو في ثلثيه. واستمر الآخرون يمضون على ذلك الطريق.. وقف أصحاب موسى لا يؤمنون برسول بعده. ووقف أصحاب عيسى في ثلثيه. ومضى المسلمون فيه وما زالوا على ذلك الطريق.

الإسلام دين كل الأنبياء

أن يقول الإنسان: «أنا مسلم» فهذا معناه: "أسلمت وجهي ونفسي لله تعالى". أي أسلم له ضميري وباطني وظاهري. أي صرت عبداً خالصاً له. والقرآن الكريم يقول: "فاعبد الله مخلصاً له الدين إلا لله الدين الخالص" ، وصورة الإسلام في مجتمع نوح عليه السلام تتضح من آيات الله في القرآن الكريم: "فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين". أي أمرت أن أكون من الذين أسلموا وجوههم لربهم وانقادوا لحكمه بغية طاعته.

وفي شأن إبراهيم عليه السلام يقول الله عز وجل:

– "ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين". والحنيف هو الماثل عن الضلال إلى الاستقامة، وبعبارة أخرى هو العازف عن الباطل والشر إلى الحق والخير.

– "إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه".

ذلك الإسلام الذي دفعه إلى أن يحطم الأصنام ويتحدى قومه ولا يعبأ بالنار التي أعدوها له. وذلك الإسلام هو الذي طوع له أن يمتثل لأمر ربه بذبح

ولده. وذلك الإسلام هو الذي ربط على قلب ولده إسماعيل فلم يفزع لما ينتظره من مصير ولم يجزع لما يحيق به من خطر. وذلك افسلام جعلهما يتوجهان بدعوتهما إلى الله سبحانه وتعالى قائلين: "ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا وجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم".

لقد كانت رحمة الله سبحانه وتعالى عاقبة إسلامهما. فنجا إبراهيم من النار كقول الله عز وجل في القرآن الكريم: "قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم". وأنجى إسماعيل من الذبح كقول الله عز وجل: "وناديناه أن يا ابراهيم، قد صدقت الرؤيا أنا كذلك نجزي المحسنين. إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم". حمل الله عز وجل من ذريتهما أمة مسلمة لله، وبعث في هذه الأمة رسولاً منها إليها وإلى الناس كافة فكان قول الله: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". ولقد جاء على لسان يعقوب وهو يوصي بنيه: "يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون".ودعا يوسف ربه متضرعاً: "توفني مسلماً وألحقني بالصالحين".وجاء على لسان موسى: "يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين". وجاء أيضاً على لسان الحواريين من أنصار عيسى: "من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون. ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين".

وعن عمرة بن عبسة ﷺ أن رجلا سأل الرسول مُحَمَّداً عليه الصلاة والسلام، ما الإسلام؟ قال: أن يسلم لله قلبك وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال: وما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فأي الإيمان أفضل؟ قال:

الهجرة. قال: وما الهجرة؟ قال: أن تهجر السوء. قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟ قال: أن تقاتل الكفار ذا لقيتهم. قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال: من عقر جواده واهريق فيه. قال رسول الله ﷺ ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما حجة مبرورة أو عمرة مبرورة[1]. وفي حديث للرسول عليه الصلاة والسلام مع أصحابه قال: "ألا أخبركم بالمؤمن؟ المؤمن، من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[2].

دعائم الإسلام

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً.

وشهادة أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله تعني أن الإسلام لله وحده لا شريك له والدين الذي بعث به مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام. وهي الإيقان والاعتراف بوجود الله عز وجل وأنه واحد لا شريك له خلق هذا الوجود. وخلق هذا الكون فأبدع وأحكم صنعه والإنسان وسط هذا الوجود وهذا الكون مخلوق لخالق. والصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع.. المقصود بها جميعاً أن تطهر روح المسلم وأن تساعدها على السمو فتنتهي من الفحشاء والمنكر وتنزع إلى الرحمة والبر والصلاح وترى نعمة الهدى فتشكر الله عز وجل وتمجده.

---

(١) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم وابن ماجه,

فالصلاة.. الغاية الكبرى والفائدة العملية العظمى وهي البعد عن المحرمات وتطهير المجتمع من الفساد والانحلال بما يبث الأمن والإيمان والسعادة في أرجائه فالله عز وجل يقول: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر".

والزكاة إلى جانب كونها عملاً تنظيمياً لاستقامة العلاقة بين الفقراء وبين الأغنياء، فإنها أيضاً عمل تعليمي للإنسان المؤمن على البذل والتضحية في سبيل وطنه ومن أجل إقامة مجتمع قوي... وأيضاً تطهر نفوس الأغنياء من الشح والبخل وتطهر نفوس الفقراء وبين الأنياء، فإنها أيضاً عمل تعليمي للإنسان المؤمن على يشوبه ببقاء حق الفقراء فيه وفي هذا يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "حصنوا أموالكم بالزكاة".

والصوم مدرسة لمكارم الأخلاق، وعامل من القوى عوامل التربية الخلقية. وتلتقي فيه كل الفضائل والصفات الكريمة والقيم الروحية بما يحقق مصلحة المسلمين وقوة المسلمين. وفيه أيضاً الصحة البدنية والنفسية. والحج. تماماً لهذه العبارات وتمكيناً لآثارها في النفس. لوسائله المتعددة لتهذيب النفس وتقوية الروح وتنشيط الجسم بما يجعل الغاية الكبرى من الحج هي تعويد الناس على الصبر والامتثال ومكافحة النفس الأمارة بالسوء.

وفيما يلي أتناول كل على حدة بشيء من الإسهاب.

- **شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله :**

تعني أن الإسلام لله وحده لا شريك له وللدين الذي بعث به مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام. والإسلام يقرر أن «الإسلام الصحيح» هو ما كان منبعثاً عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع. وبذلك حطم الإسلام القواعد التي كان يسير عليها التدين في كثير من الأمم من قبله وهي قواعد التقليد الأعمى والاتباع

وإهمال النظر والتفكير الحر، وأهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم في عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلي والمنطق السليم، ودعا إلى النظر والتفكير. ولقد أخذ الله عز وجل على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفال جانب النظر والتفكير فقال تعالى: "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون".. ولقد ذكر الله تعالى في كتابه الكريم ما أصاب عقيدة أهل الكتاب مبيناً بذلك مرحلة من مراحل الفكر البشري لتصور «الله» ف يقول عز وجل: "وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أني يؤفكون. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون".

ويوضح الأمر قول الله عز وجل: "إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم لم نبتهل فتجعل لعنة الله على الكاذبين أن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين، قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون".

ونتبين من هذه الآيات أن هذه إرادة الله عز شأنه فإن كانت ولادة عيسى من غير أب شيء عجيب وأمر غير مهضوم لأنها مخالفة لسائر البشر فأعجب منها وأغرب منها ولادة آدم من غير أب ولا أم. وتلك هي إرادة الله وقدرته. لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. ويقول الله عز وجل: "إذ قالت الملائكة يا

مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسلح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين.

فخلق عيسى من غير أب لهو الدليل على قدرة الله. فكما خلق عيسى من غير أب فقد خلق آدم من غير أب ولا أم. فعيسى عبد الله مثل آدم وغيره من البشر وفي آيات الله سبحانه وتعالى نفى لألوهية عيسى. ويقول عز وجل : "لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير". ويقول الله سبحانه: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فين فنسى ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعتدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد". وفي سورة مريم نجد آيات الحق تبارك وتعالى: "قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً".

فالإسلام يدعو إلى التحرر المطلق بين العبودية لغير الله عز وجل وينهى الناس أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله كما اتخذ أهل الكتاب أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون. فجميع الرسل تنادي بعبادة الله وتوحيده. "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون". صدق الله العظيم

وحينما جاء الإسلام وجد لدى البشرية تراثاً هائلاً من العقائد والفلسفات المنحرفة لحقيقة الوجود ولقد عالجها القرآن الكريم لأنه الأساس العقيدي الذي تقوم عليه الأمة المسلمة وتنبع منه جميع القيم والأخلاق وتبنى عليه كل قواعد العمل والسلوك. ولم يقصد به القرآن الكريم مجرد المعرفة والثقافة، ولكنه منهج حياة ينبع منه ويقوم على أساسه جميع أوجه النشاط الإنساني. فبين القرآن الكريم ووضح:

- إن الوجود من صنع الله سبحانه خالق كل شيء ومالكه ومدبره. فقال تعالى: "الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم لكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرًا".. وقال عز وجل: "ولله ملك السموات والأرض وما بينما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير". وقال سبحانه وتعالى: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون".

- والله سبحانه وتعالى له ملكوت السموات والأرض وكل ما في الوجود خاضع لأمره وإرادته ومشيئته. يقول الله عز وجل: "قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب".

- وسر الحياة والوجود يفسرها في قوله تعالى: "إنما قولنا لشيء – إذا أردنا – أن نقول له: كن، فيكون".

- والله سبحانه وتعالى يعلم بما في الوجود والكون. يقول عز وجل: "وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم

شهوداً إذ تفيضون فيه، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكثر إلا في كتاب مبين". ويقول عز وجل: "ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء الله".

- والوجود كله مطيع لأمر الله سبحانه وتعالى وإرادته. خاضع لسنته ونظامه. فيقول عز وجل: "لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون".

فالوجود خاضع لأمر الله ونظامه تارة بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالتسليم يقول الله سبحانه وتعالى: "تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم، إنه كان حليماً غفوراً.. ويقول تعالى: "ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال". ويقول سبحانه: "أفغير دين الله يبغون، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون".

- وفي مرحلة من مراحل الفكر الإنساني تصور الإنسان أن هناك الهين:

إله النور والخير. وإله الظلام والشر. ولقد وضح القرآن الكريم أن الله واحد لا شريك له: "قل هو الله أحد، الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد".

- ويقول القرآن الكريم للضالين: "يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضعف الطالب والمطلوب".

ويقول عز وجل: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت".

ويقول تعالى: "أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وأن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون"

ويقول تعالى: "أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون"

ويقول أيضاً سبحانه: "أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها. أدلة مع الله؟ بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً. أدله مع الله؟ بل أكثرهم لا يعلمون. أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض. أدله مع الله؟ قليلاً ما تفكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر. ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أدله مع الله؟. تعالى الله عما يشركون. أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن ريزقكم من السماء والأرض. أدله مع الله؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين". سبحان الله عز وجل شأنه فهو يقول: "ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون»".

فالله سبحانه وتعالى يدعوك للتأمل في الوجود والكون لمعرفته سبحانه عز وجل ولكن إذا أردت أن تتعرف على الله سبحانه وتعالى فلا تحاول أن تتعرف عليه عز وجل من ناحية إدراك كنهه والكشف عن حقيقة ذاته لأن ذلك: أولاً: غير ممكن ولا هو في طاقتك كإنسان وبشر. ثانياً: من شأنه أن يشغلك في بحوث نظرية لا تكاد تنتهي ليشبع وقتك وجهدك دون ثمرة تجنيها. وعليك أن تأخذ في شأن الله جل وعلا بهذا القانون الوقائي الذي وضعه هو سبحانه وهو: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" وكذلك: "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير"

ثم عليك أن تعرف الله سبحانه من جانب صفاته وأن تحدد صلتك به من جهة ما يجب عليك أن تفعله أو أن تدركه في حياتك باعتباره إلهك وخالقك وباعتبارك عبده ومخلوقه وعابده. عليك أن تنظر وتفكر في سنن الله في الكون والحياة. فتتعرف إليه تعالى من صفاته وآثار تدبيره في الأنفس والآفاق. وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال: "تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا".. ويقول الله عز وجل: "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربما ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار". والذين عطلوا منافذ التفكير والمعرفة في أنفسهم فإن مصيرهم يوضحه قول الله تعالى: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون". ويبين القرآن الكريم بوضوح مصير اليهود الذين أرادوا رؤية الله عز وجل فقال تعالى: "فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم".

وهذه هي قصة موسى عليه السلام يقصها القرآن الكريم:

"قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقًا، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين".

لقد جنب الله سبحانه العقل البشري عناء لا طائل منه بفطم العقل البشري عن التفكير في الذات الإلهية ثم أطلق له العنان وحضه على النظر والتفكير في سنن الله في الكون والتعرف على الله عز وجل من صفاته وآثار تدبيره في الأنفس والآفاق.

والدعامة الأولى التي يقوم عليها منهج الفكر في القرآن الكريم هي تحرير الإنسان تحريراً كاملاً. ونخص بالذكر تحرير العقل من كل ما يقيده ويشل تفكيره أو ينحرف به. وتحرير ضميره من كل ضغط أو إكراه والأساس الذي أقام عليه القرآن الكريم ذلك التحرير هو فصل المعجزة عن الإيمان. فلقد أبعد القرآن الكريم المعجزات الحسية وخوارق العادات تماماً عن مجال الإيمان ولم يجعلها قط في موضع الإقناع وجعل الإيمان نتيجة التفكير والفهم والاقتناع. فالرسالات السابقة كانت تعتمد في الدعوة والإقناع على المعجزات الحسية التي تبهر ناظريها وترغم على التصديق والإيمان ولم يكن المتصور عند أهل الكتاب والمشركين أن الله تعالى يبعث رسولاً دون أن يكون مؤيداً بالآيات والمعجزات الحسية فكان من الطبيعي أن يطالبوا النبي ﷺ بالمعجزات التي كانت ملازمة في تصورهم للنبوة. ويقول القرآن الكريم: "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا. أو تسقط السماء – كما زعمت – علينا كسفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟ ويقول عز وجل: "قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم أني ملك أن أتبع إلا ما يوحى إلي".

ولقد بين الله عز وجل في كتابه الكريم الحكمة من عدم الاستجابة لطلب المعجزات وعدم جدواها في مجال الإيمان. فقال سبحانه: "وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً". فالمعجزات الحسية ليست سبيل الإيمان ويبين ذلك قول الحق تبارك وتعالى: "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمن بها، قل

إنما الآيات عند الله، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون. ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون".

ولقد قصر سبيل الإيمان على التفكير وحدد منهج التفكير الذي يوصل إلى الحق والهدى. يقول تعالى: "قل إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما يصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد" ويبين عز وجل مشهداً موجباً من مشاهد القيامة يصور أهل جهنم يبدون حسرتهم بعد أن علموا سبب ضلالهم وهلاكهم أنهم كانوا في الدنيا لا يسمعون ولا يعقلون: "وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير. فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير".

يقول البروفيسور «بول كلارنس أرسولد» (الحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية في معامل «أرك ريدج» وعضو جمعية الأبحاث النووية): «هناك أمر واحد لا شك فيه فيقدر ما بلغ الإنسان من معرفة وما لديه من ذكاء وقدرة على التفكير لم يشعر في وقت من الأوقات بأنه كامل في ذاته. والناس على اختلاف أديانهم وأوطانهم وأجناسهم قد عرفوا منذ القدم وبصورة تكاد تكون عامة مبلغ قصور الإنسان عن إدراكه كله هذا الكون المتسع كما عجزوا عن إدراك سر الحياة وطبيعتها في هذا الوجود. وقد لمس الناس عامة أن هناك قوة فكرية هائلة ونظاماً معجزاً في هذا الكون يفوق ما يمكن تفسيره على أساس المصادفة أو الحوادث العشوائية. وهناك كثير من الأشياء التي لم تستطع العلوم حتى اليوم أن تجد لها تفسيراً أو تكشف عنها أسرار النقاب، وقد أدرك رجال العلوم أن وسائلهم وإن كانت

تستطيع أن تبين لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث هذه الأشياء. فإنها لا تزال عاجزة كل العجز عن أن تبين لنا لماذا تحدث هذه الأشياء والحق أن التفكير السليم والاستدلال المستقيم يفرضان على عقولنا فكرة وجود الله. وأنني لا أستطيع أن أتصور الله تصوراً مادياً بحيت تستطيع أن تدركه الأبصار أو يحل في مكان دون الآخر. والواقع أنه عندما تتحدث الكتب المقدسة عن الله وعن ذاته فإنها تستخدم كثيراً من الألفاظ التي نألفها في وصف حياة الإنسان وتاريخه على الأرض. ونحن لا نستطيع أن نصف الله وصفاً روحياً صرفاً لأننا لا نستطيع أن نعبر عن صفاته الروحانية إلا في حدود خبرتنا. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نصل إلى أن الله تعالى يتصف بالحكمة والإرادة وتتجلى قدرته في كل شيء وبالرغم من أننا نعجز عن إدراكه مادياً فهناك ما لا يحصى من الأدلة المادية على وجوده تعالى وتدل أياديه في خلقه على أنه العليم الذي لا نهاية لعلمه، الحكيم الذي لا حدود لحكمته، القوي إلى أقصى حدود القوة».

وهذا عالم آخر من علماء الفضاء وهو العالم الأمريكي «جيمس ابرويس» الذي صعد إلى القمر يقول: «أن التأمل في الفضاء يؤكد للإنسان وجود قوة خارقة تتحدى قوانين الطبيعة والرياضة التي عرفها الإنسان وهذه القوة الخارقة التي عجز البشر عن الوصول إلى سرها حتى الآن هي الله». ولقد عاد هذا العالم من رحلته إلى القمر كإنسان متصوف بدأ يدعو عن طريق جمعية دينية إلى حب الله. وصدق الله عز شأنه حين يقول: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق".

كل ابن آدم خطاء:

يقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابين". فهذا هو طريق الرجوع إلى الله عز وجل الذي سار فيه

الكثير بعد أن ضلوا الطريق فاهتدوا إلى الله سبحانه بعد البحث وتحرر العقل من قيود العادات والتقاليد والمؤثرات العاطفية والبيئية ولقد دخل في دين الإسلام كثير من المفكرين أمثال الدكتور «مارتن لينجر» الإنجليزي الذي قال: «أن أساس إيماني هو القاعدة التي وضعها الرسول وهي:

"اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراكك. وصدق الله العظيم حين قال: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين".

الإيمان بوحدانية اللّه:

الإيمان بالله: يخضع الجميع لعبادة إله واحد فتتحد به قبلتهم وتتوحد أفكارهم وأهدافهم وآمالهم ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله حتى لا يكون هناك فضل لفرد على آخر إلا بالعمل والتقوى. ومتى عبد الفرد ربه واطمأن قلبه واختفى من نفسه الشعور بالخوف على الحياة. "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله". "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". "الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر" بمعنى أن الأرزاق بيد الله ومن عنده، الله يبعث في النفس التحرر من العبودية ومن ذل الحاجة. ومن ذل السؤال. والدعاء والرجاء لغير الله سبحانه وتعالى. فالإيمان بوحدانية الله وتقواه تجعل الإنسان يخاف مقام ربه ولا يخشى سواه في جميع تصرفاته وأداء ما له من حقوق والتمسك بما شرع من عادات ومعاملات وأخلاقيات والبعد عما نهى عنه من شرور وآثام.

فالإيمان بالله تصديق وعمل. عبادة وجهاد. خلق وسلوك. إنه منهج كامل لكل مجالات الحياة. والقرآن الكريم حين يذكر الإيمان يقرنه دائماً بالعمل. فالعمل ثمرة الإيمان وهو مظهره الخارجي الذي يراه الناس ويجدون آثاره بينما يبقى الإيمان حقيقة نفسية تحتويها القلوب وتستقر بين الضلوع. فالإيمان والعدل

قد اقترنا. ويقول عز وجل: "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار". ويقول أيضاً سبحانه: "من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة". ويقول سبحانه عز وجل في القرآن الكريم أيضاً:

– "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً".

– "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً".

– "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول للرجل الذي قال له: "قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك» فقال: "قل آمنت بالله ثم استقم". وفي ذلك يقول عز وجل: "قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون. والذين هم عن اللغو معرضون. والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون. والذين هم على صلواتهم يحافظون".

– "إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون".

ولقد التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين:

نحن خير منكم، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً.

وقالت النصارى مثل ذلك. فقال المسلمون: كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد

نبيكم وديننا بعد دينكم وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا. فنزل قول الله سبحانه وتعالى: "ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً".

ويؤكد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذه الحقيقة في قوله: "ليس الإيمان بالتمني ولكن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً آلهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى، وكذبوا أو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل". (رواه البخاري في صحيحه).

الإيمان بهذا المفهوم هو القيمة الأولى في الحياة ومنه نتبع جميع القيم. وسبيل الأمن والسكينة في الدنيا والنعيم في الدار الآخرة هو الحياة بهذا الإيمان والسير وفق منهجه. يقول الله سبحانه: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكن فيها ما تدعون".

فالإيمان هو الباعث الأساسي لخلق المؤمن، والدافع الحقيقي لسلوكه، والرقيب القائم على ضميره.. وهو بعد ذلك الضمان الأكيد لسلامة تطبيق التشريع في واقع الحياة.. وربانية الترشيع تسمو بقدسيته في قلوب المؤمنين إذ تجعل تطبيقه فريضة وطاعته إيماناً.. ويقول عز وجل: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون". ويقول أيضاً سبحانه: "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون". سورة المائدة آيات ٤٤ – ٤٥ – ٤٧). والإيمان بالله سبحانه

وتعالى هو إيمان بشريعته وتطبيقها تطبيقاً سليماً في واقع الحياة. يقول سبحانه وتعالى: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليمًا".

إن الإيمان بالله عز وجل يحدد الخيط الأول الذي يعرف به الإنسان مكانه من الوجود والحياة بما فيها من قيم. وقيم الحياة تنبع أساساً من الإيمان، فهي كما جاء بها القرآن الكريم ليست أخلاقاً مفردة أو مجردة، ولا آداباً للسلوك متغيرة أو متطورة، إنما هي قيم ثابتة موحدة تنبع من العقيدة وترتفع في ضمير المؤمن إلى مستوى الإيمان. فليس على سبيل المثال «الكذب» في ميزان القرآن الكريم مجرد جريمة خلقية إنما هو أمر يخرج بصاحبه من أفق الإيمان. ويقول عز وجل: "إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله".

ولقد تعرف الله سبحانه وتعالى إلى خلقه بأسماء وصفات تليق بكماله وجلاله ذكرت في القرآن الكريم والسنة وقد جمعها رسول الله ﷺ وقال: "لله تسعة وتسعون اسماً – مائة إلا واحداً – من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر".وفي رواية أخرى من تخلق بصفة منها دخل الجنة".

ثم أمر بالتأسي بصفات الله فقال: "لا تخلقوا بأخلاق الله تعالى". ولقد كان حظ الرسول عليه الصلاة والسلام من التخلق بأخلاق الله عز وجل والتحلي بصفاته عظيمًا وبلغ في ذلك ذروة وصفتها أم المؤمنين عائشة ﵂ حين سئلت عن خلقه فقالت: "كان خلقه القرآن. يغضب لغضبه ويرضى لرضاه. وما انتقم لنفسه قط. فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء".

إن الدرجة التي وصل إليها الرسول عليه الصلاة والسلام في مكارم الأخلاق يقول عنها الله عز وجل في آياته الكريمة مخاطب" رسوله: "وإنك لعلى خلق عظيم". ويقول «قتادة» لتفسير ذلك: هو ما كان يأتمر به من أوامر الله،

وينتهي عما نهى الله..والمعنى: أنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن.. ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام أمياً لا يقرأ ولا يكتب فكان الأمر الإلهي الأول "اقرأ" فأجاب عليه الصلاة والسلام "ما أنا بقاريء" ويتكرر الأمر.. أمر الله عز وجل: "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم".

ولقد بدأ الأمر الإلهي بكلمة «اقرأ» والقراءة هي باب العلم والتربية، وكلمة «ربك» توحي بصلة قوية بالتربية، فلقد قال المفسرون أن قول الله تعالى: «باسم ربك» – ولم يقل باسم الله – لفظ يدل على التربية والتكوين والرعاية، وربوبية الله للناس تظهر بتربيته إياهم. وهذه التربية قسمان:

الأول: تربية خِلقية بما يكون به نموهم وكمال أبدانهم وقواهم النفسية والعقلية.

الثاني: تربية شرعية تعليمية وهي ما يوحيه إلى أفراد منهم ليكمل به فطرتهم بالعلم والعمل إذا اهتدوا به.

والقرآن الكريم طبيعته تربوية يرقى بها إلى مستوى العقيدة النابعة من الإيمان. ومن أعظم خصائص رسالة الإسلام أنها رسالة خلق يبرز العنصر الخلقي في شعائرها كما يبرز في شرائعها. وهذه هي الكاتبة الغربية «مس انى رود» تقول في ثمن «ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين فيها الحشمة والوقار وفيها الخادم والرقيق ينعمان بأرغد العيش ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ولا تمس الأعراض بسوء. إنه لعار على بلاد الأفرنج أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، ما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها

الطبيعية، من القيام في البيت وترك أعمال الرجال، سلامة لشرفها»[1].

.. لقد لخص الرسول عليه الصلاة والسلام رسالته في قوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق". ومن هنا كانت وسيلتها التربية ومجالها الأول النفس والضمير، والقرآن الكريم كتاب تربية، وفرائض الإسلام جميعاً تربوية، وسر عظمة نبي الإسلام أنه على خلق عظيم..

لقد أيد الله سبحانه وتعالى رسوله بالقرآن الكريم فبلغ الحد الأعلى في البلاغة والفصاحة ودقة الأسلوب وحلاوة اللفظ وروعة المعنى في أمة عرفت بالفصاحة والبلاغة ولقد تحداهم عليه الصلاة والسلام أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فعجزوا. ويقول الله عز وجل في آياته: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين".

إن الله عز وجل في القرآن الكريم: "ليس كمثله شيء". أي أن ذاته سبحانه وتعالى لا يمكن تصورها أو تخيلها. فتصور ذاته فوق العقول وفوق الإدراك. "لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار". "ولله المثل الأعلى".. ولهذا نهى نبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه نهياً قاطعاً عن التفكير المجرد فقال: "لا تتفكروا في ذات الله فتهلكوا". ودعا إلى التفكير في آيات الله في الكون لأن هذا يؤدي حتماً إلى الإيمان بوحدانية ووجود الله.

والإيمان بوحدانية الله هو تحرر الإنسانية من صور الضعف والإذلال في جانب الاعتقاد والتوجيه والله الذي يجب أن يعبد وحده هو الكمال المطلق في الوجود: "الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى". والأسماء الحسنى التي لله سبحانه

---

(١) أهداف الأسرة في الإسلام لحسين محمد يوسف (الجزء الأول) عن جريدة الايسترن ميل (بريد الخارج) عن ١٩٠١/٥/١٠.

وتعالى هي صفات الكمال المطلق التي يستحق من أجلها أن يكون رباً ومعبودًا. فهو واحد مطلق في أنه خالق كل شيء. وهو واحد مطلق في أنه لا يحد بالبصر هو فوق كل الكائنات المحسة جميعاً: "ذلكم الله ربكم لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ". الإيمان بالله وحده هو النقطة الفاصلة في حياة الإنسانية بين ضعف في الاعتقاد والتصور يجب أن يمضي إلى غير رجعة. وقوة مترقبة في الانطلاق نحو المثل العليا. وهو القيم الكاملة. والسعي نحو الاقتراب منها يجب أن يتحقق وكرامة الإنسان تقتضي أن يكون في عبادته متوجهاً إلى من هو فوقه وليس هناك فوق الموجودات جميعاً إلا الله. ومن المهانة للإنسان والسخرية منه والاستخفاف به أن يبقى في دائرة ما انحدر إليه في الاعتقاد من عبادة غير الله ممن هو دونه. والإسلام حينما يدعو الإنسان إلى الإيمان بوحدانية الله فهي دعوة إلى التحرير والتحرر. دعوة إلى العزة والكرامة. دعوة إلى الانطلاق في الوجود والكشف عن خفية قبل واضحة لأن الله خالق هذا الكون سخر له ما في السموات والأرض. "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون".

ويبين الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أثر الإيمان فيقول: "ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى". ويقول أيضاً: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك رسول الله ﷺ بين أصابعه. "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه، اشتكى كله، وإن اشتكت عينه، اشتكى كله".

إن نداء: الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن مُحَمَّداً رسول الله. هذا النداء تخفق له القلوب ويسيطر على المشاعر.. وهذه فتاة من ألمانيا من جماعات «الهيبز» حينماسمعت هذا النداء من فوق مئذنة سيدنا الحسين

ﷺ خفق قلبها وسيطر على مشاعرها ووجدت نفسها تردد: الله أكبر. الله أكبر.. تلك الفتاة اسمها بعد إسلامها مريم شكر الله. وهذه قصتها كما ترويها هي حيث تقول: «كنت كهؤلاء الشباب الذي خرج هارباً من الحضارة المادية الزائفة ليعيش في جماعات تنتقل من مكان إلى مكان، والذين عرفوا في هذه الأيام باسم الهيبز. لقد خرجت من ألمانيا بحثاً عن الحقيقة فقد كنت أبحث عن شيء ملح ولم أكن أعرفه بالتحديد. وكان معي في رحلتي هذه الكتب السماوية الثلاثة، كنت أنتقل بينها كما أنتقل من بلد إلى بلد ومن طريق إلى طريق، حتى جئت إلى مصر وكأنني كنت على موعد. وكان النداء من فوق مئذنة سيدنا الحسين ﷺ: الله أكبر. الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن مُحَمَّدا رسول الله.. وخيل إلي أن هذا النداء كان موجهاً إلى وحدي. ووجدت نفسي وإذا الفتاة الغربية التي لا تفهم كلمة واحدة من اللغة العربية مشدودة إلى هذا انداء بقوة سيطرت على مشاعري وخفق قلبي بشدة لهذه الكلمات وتحرك لساني بها بدلت أردد هذه الكلمات: الله أكبر. الله أكبر. وبدأت أنظر إلى من حولي. إلى هؤلاء الناس على اختلاف أعمارهم وأشكالهم الذين لم تجمعهم مصلحة أو حاجة أو لهو أو عبث، بل أنهم اجتمعوا لغاية واحدة وهي ذكر الله ألم يقل الله سبحانه وتعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب» إنني الآن قد اطمأن قلبي ووجدت الشيء الذي كنت ابحث عنه وأدعو الله أن يهدي بقية أسرتي إلى الإسلام. ونسيت أن أقول لك أنني درست الرسم في باريس ومدريد، وأنني يجب أن أستخدم الموهبة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى لي لكي أحبب كلمة الله حتى تصل إلى القلوب، فالإسلام له فنه الذي تكره المسلمون للأسف الشديد، وعمل الأوروبيون على أفساده لأنهم لا يحسون به كما يحس المسلم المؤمن. وأنني بهذا العمل سأكون ذاكرة الله في كل وقت، في العبادة والعمل ألم يقل سبحانه وتعالى "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون".

الشهادتان هما عماد الدين، فإيقان القلب واعتراف الفرد بوجود الله وأنه واحد لا شريك له خلق هذا الوجود المحكم صنعه. وإيمان القلب بأن مُحَمَّد رسول الله هو الماحي الذي يمحو الله به الكفر. وهو المصطفى الذي اصطفاه الله ليبلغ للناس رسالته وأنزل عليه القرآن الكريم هدى للمؤمنين ورحمة. وعبارة «لا إله إلا الله» تنفي عن الله سبحانه الشريك له. والوجود لابد وأن الله عز وجل هو الذي أوجده. والإنسان وسط الكون مخلوق لخالق.

وشهادة أن مُحَمَّداً رسول الله هو الإقرار الثاني بأن الله عز وجل عني بخلقه وأنعم على عباده وأرسل الرسول عليه الصلاة والسلام ليبلغ أوامر ربه ونواهيه لئلا يكون للناس على الله حجة رغم أن سبحانه وتعالى هو الخالق الحاكم الناهي، "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً".. ويقول أيضاً سبحانه وتعالى: "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل".

الصلاة:

الصلاة بعد الشهادتين أولى أركان الإسلام وهي تتميز بالأولوية والتقديم لأن رسول الله ﷺ تلقى فرضيتها من الله تبارك وتعالى من فوق سبع سموات ليلة عروجه إلى الملأ الأعلى وكان ذلك قبل الهجرة بعامين أو ثلاثة أعوام أما بقية الفروض فقد جاءت بعدها تنزيلاً بين السنة الثانية والتاسعة من الهجرة.

لقد أوجبها الله عز وجل على المؤمنين في خمسة أوقات، يقول سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: "أن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً" أي فريضة، من جحدها فقد كفر.. وتؤدي في وقتها المخصص.. من أخل بذلك فقد عصى.. ويقول تبارك وتعالى في كتابه العزيز: "فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون".

ولقد اختار الله سبحانه وتعالى من بين أوقاتها وقتاً فضله وجعل له أهمية ليست لغيره وميز الصلاة فيه بمميزات لا حدود لها حيث قال سبحانه عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله. واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون". والصلاة بعد الإيمان أفضل الطاعات وفي التعبد أحسن الهيئات وهناك حكمة في فريضتها في هذه الحال.

الحكمة في فرضيتها في هذه الحال.

لما أسرى بالنبي مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام شاهد ملكوت السموات بأسرها وعبادات سكانها من الملائكة فاستكثرها عليه السلام غبطة وطلب ذلك لأمته فجمع الله سبحانه وتعالى له في الصلوات الخمس عبادات الملائكة كلها. لأن منهم القائم والراكع والساجد. ومنهم الحامد والمسبح. فأعطى الله تعالى أجور عبادات أهل السموات لأمته إذا أقاموا الصلوات الخمس والحكمة في أن جعلها الله تبارك وتعالى مثنى وثلاث ورباع في عدد ركعاتها ذلك لأنه عليه الصلاة والسلام شاهد هياكل الملائكة تلك الليلة أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع فجمع الله عز وجل ذلك في صور أنوار الصلوات عند عروج ملائكة الأعمال بأرواح العبادات. والحكمة في كونها خمس صلوات فلأنه عليه الصلاة والسلام بعد سؤاله التخفيف قال له الله سبحانه وتعالى: "يا مُحَمَّد: إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر حسنات، فتلك خمسون صلاة، وكانت خمسين على من قبلنا".

وكما أن الله عز وجل أمر بإقامة الصلاة أمر كذلك:

– بالمداومة عليها فيقول سبحانه وتعالى: "لذين هم على صلاتهم دائمون".

– وأمر بأدائها في جماعة.. قال تعالى: "واركعوا مع الراكعين".

– وأمر كذلك بالمحافظة عليها حيث قال سبحانه وتعالى: "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً. فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون".

وإذا تأملنا سياق الحديث في آيات الله سبحانه وتعالى فإننا نجد أن الآيتين الكريمتين السابقتين مسبوقتان بالحديث عن أوضاع الأسرة. من ذلك:

– عدة المتوفى عنها زوجها: "وللذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً".

– خطبة النساء: "ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء".

– أحكام الطلاق: "لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن عريضة". "وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن".

ثم بعد هاتين الآيتين يعود السياق إلى بيان أوضاع البيت في مثل هذه الظروف. فيقول عز وجل: "والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم". "وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين. كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون".

وفي آيات الله عز وجل نجد أن الأمر بالحفاظ على الصلاة أتى في سياق الحديث من الطلاق وآثاره وهذا يبين الصلة الوثيقة بين الصلاة ومستقبل الأسرة وعن أثر الصلاة في إعداد البيت إعداداً يتلافى به أخطر مشاكل الأسرة وهو الطلاق.. ولقد روى الإمام الغزالي: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله».. فكيف تكون الخسارة إذا ترك الصلاة برمتها؟ فالصلاة كما يفيد

توسط الأمر بالحفاظ عليها – آيات الطلاق – هي العاصم من أمر الله. وهي التي تعد البيت إعداداً طيباً مباركاً.

وإذا كان النجاح في الحياة يستلزم الشعور بالأمن، فإن الصلاة لها دور في ذلك.. فحينما يهتف المسلم: الله أكبر. فإنه يطأ بقدميه حياة المستكبرين في الأرض ويكون قوي الأعصاب – لا تتوزعها الأطماع – في حضرة مولاه، مانح الحياة من لدنه. وهؤلاء المستكبرون مثله عباد الله. وعندئذ فإن عمله يكون متقناً صالحاً لأنه يقصد بعمله وجه الله تعالى دون سواه. وفي صحبة هذا الأمن تتوازن النفس. وبدافع الإيمان بالله وبقدرته وحده نجيد عملها.

والصلاة تستلزم طهارة البدن والثوب والمكان الذي يؤدى فيه الصلاة وتوجب على الإنسان أن يتوضأ والوضوء هو غسل اليدين والوجه والذراعين والشعر والأذنين والرقبة والرجلين. وهو لهذا تجديد مستمر لنظافة الأطراف والاعضاء. بالإضافة إلى ذلك فإن للماء فوائده في اتزان العواطف ويقول الله سبحانة وتعالى في كتابه الكريم: "إذ يغشيكم النعاس آمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق وأضربوا منهم كل بنان". وفي قول الله عز وجل نجد ثلاثة عوامل لعلاج الاضطراب النفسي هي[1]: العامل الأول: هو الشعور بالأمن. الشعور الي نتج عنه عدم اضطرابهم قبيل ملاقاة العدو. ولذلك فقد غشيهم النعاس والنوم هو أكبر مهديء للأعصاب. قال الله سبحانه وتعالى: "ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم

(١) من بحث للدكتور جمال ماضي أبو العزايم موضوعه «الصحة النفسية والقرآن الكريم» – من كتاب «الدين والمجتمع».

من فضله أن في ذلك لآيات لقوم يسمعون". العامل الثاني: هو أن القوة الإيجابية التي بثها الرسول ﷺ في مسلمي بدر قد جعلتهم يطمئنون ويأخذون قسطًا من النوم ترتاح له أعصابهم قبل بدء القتال. العامل الثالث: هو الانتعاش الذي يسببه تعرض الجسم لرذاذ الماء والتأثير الملطف على أعصاب الجلد التي تنقل هذه الأحاسيس إلى الجهاز العصبي المركزي وتلطف من انفعالاته. ويتضح من ذلك أن الماء الذي نزل على أهل بدر ساعد على شعورهم بالطمأنينة النفسية وأنه مضاف إلى ما غشيهم من نوم وما بثه الرسول عليه الصلاة والسلام فيهم من ثقة.. كل هذا قد ربط على قلوبهم وثبت أقدامهم.

وترجع أهمية الطمأنينة من الناحية الطبية إلى أنه عندما ينفعل الإنسان يفرز الجسم في الدم مادة «الأدرينالين» التي تؤثر على سرعة دقات القلب وبزيادة الانفعال يمتليء القلب بالدم الذي يأتي من تقلص الأوعية في الأمعاء وفي الأحشاء فيتمدد القلب ويزداد حجمه بحيث يصل إلى القصبة الهوائية. أما إذا كان الإنسان مطمئن البال فإن ضربات قلبه تكون عادية السرعة ويكون القلب في وضعه الطبيعي وهو ما أشار إليه سبحانه وتعالى في قوله: "وليربط على قلوبكم". ومادة الأدرينالين التي يفرزها الجسم عند الخوف وفقدان الأمان تؤثر كذلك على عضلات الأطراف التي تتوتر وتظهر الرعشات على الأطراف. أما الطمأنينة والأمان التي تجئ بالنوم والإيحاء وتأثير الماء مجتمعة فإنها تذهب التوتر العضلي وبذلك تثبت الأطراف مصداقاً لقوله تعالى: "ويثبت به الأقدام".

ومن هنا يتضح أهمية الصلاة وفوائدها. لذا فإن رسول الله عليه الصلاة والسلام وصى قائلاً: "مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم على تركها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع". ويروى أيضاً أن ابن كثير روى أن النبي عليه الصلاة والسلام. : "إذا أصابه خصاصة نادى أهله يا أهلاه: صلوا. صلوا". ويقول الله

عز وجل: "وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى". فأقام الصلاة كما أرادها الله سبيلاً إلى الرزق والمقصود أن الرزق يأتي إلى النفوس التي استعدت له وتطلعت إليه وعملت من أجله وتحررت بالصلاة من كل عقدة تتروى بالإنسان، فالصلاة دواء للإنسان ينتقل به من رذائل البخل والتهور والجذع إلى التحلي بالتوازن وتكامل الشخصية. ويقول عز وجل: "إن الإنسان خلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين: الذين هم على صلاتهم دائمون".

فالصلاة هي الفريضة الفذة التي تلازم المسلم ملازمة مستمرة يومية فعن طريقها تكون صلته بالله عز وجل غير مقطوعة. ففي كل صلاة يقف المسلم بين يدي الله سبحانه وتعالى متطهراً بالوضوء متخشعاً خشوع العبد أمام الخالق يذكر الله ويسأله الرحمة والمغفرة في قيامه وركوعه وسجوده فإن كان على ما ينبغي من الطهور وإخلاص النية وحضور العقل والقلب فإن اتصاله هذا المتتابع في كل صلاة المتقارب بالله جل وعلا يقوى عنده الإيمان ويبعث في نفسه الهيبة والرهبة والمخافة من سخط الله وغضبه فيصون نفسه من الوقوع في المعاصي والذنوب ويتعدل سلوكه ويقول الله عز وجل: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكرط. ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن الصلاة عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين". ويقول أيضاً عليه السلام:

– "مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب فهو بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟" قالوا: لا شيء. قال: "فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن".

– "ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد".

أي أن المسلمين في صلواتهم الخمس كل يوم يرتفعون خلالها روحياً إلى مثل مقام الملائكة حيث حياتهم في السماء صلاة دائمة وتسبيح متصل.

– "فضلنا على الناس بثلاث، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء".

فالصلاة في المسجد أو في أي موضع من الأرض تجمع المسلمين صفوفاً لصفوف الملائكة وفي تجمعهم وقيامهم صفوفاً تنحني الفوارق بينهم ويتجلى مظهر المساواة بين الغني والفقير وتشع فيهم روح الأخوة والمحبة والوحدة.. وهنا يبدو سر القوة ومصدرها. لذلك كان فضل صلاة الجماعة التي يقول الرسول فيها: "صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة".

وكان أبو بكر ﷺ إذا ماحضرت الصلاة يقول: "قوموا إلى ناركم التي أوقدتموها فاطفئوها".. وهذا يعني أنهم فيما قبل الصلاة يقعون في خطايا وكأنهم أوقدوا بها على أنفسهم ناراً من عقاب الله، والصلاة لهم طهرة ونجاة وذلك لما ينالونه بفضلها من رحمة الله وهذا هو نفس معنى الحديث الشريف: "أن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر". وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث يقول: "مروهم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع".

الزكاة:

إن ما في الأرض من مال أو عقار أو طاقات أو ثروات إنما هو في الأصل والحقيقة والواقع ملك لله سبحانه وتعالى لأن الله عز وجل هو خالقه ومبدعه وموجده من العدم. ولقد جاء في القرآن الكريم قول الله تعالى "قل اللهم مالك الملك". "بيده ملكوت كل شيء". طتبارك الذي بيده الملك وهو على كل

شيء قدير". والله سبحانه وتعالى بتكريره لهذا المعنى في القرآن الكريم أراد أن يحارب في الإنسان روح الشر والبغي ونزعة التكبر والطغيان فلا يغفر بما في يده من مال يملكه سواء كان ذلك منقولاً أم عقاراً حتى لا يتوهم الإنسان أنه قد صار مستغنياً بما في يديه من ملك عن غيره. وفي ذلك يقول الله عز وجل: "كلا إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى" مع أنه مهما تملك الإنسان فإنه سيظل أبداً فقيراً إلى ربه محتاجاً إلى عونه. ويقول الله عز وجل في ذلك: "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد". ويقول أيضًا سبحانه وتعالى: "والله الغني وأنتم الفقراء".

والله تبارك وتعالى وهو المالك الأول والأخير لكل ما في الكون يتفضل على عباده فيهب لهم من ملكه ونعمه ما يشاء. فيقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "قل اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير".

وامتلاك الإنسان للمال إنما هو امتلاك ظاهري فهو أشبه بالقرض الذي يسترده الله تعالى منه في يوم من الأيام وأن بعد هذا اليوم أو طال عليه المدى. ويقول الله سبحانه وتعالى: "إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون". و"إنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون". "وكنا نحن الوارثين". "والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير".

وحينما يهب الله سبحانه وتعالى الإنسان شيئاً من ملكه الواسع بطرق التملك الشرعية المستقيمة السليمة وقواعد الكسب الشريفة. يصبح الإنسان خليفة عن ربه في هذا المال. ويقول عز وجل: "هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور".. "وأنفقوا مماجعلكم مستخلفين فيه". أي الذي جعلكم مسيطرين عليه بمقتضى استخلافه لكم.

ويقول سبحانه وتعالى في شأن المحتاجين إلى المعونة: "وآتوهم من مال الله الذي آتاكم". فالمال مال الله جل شأنه. والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: "ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت". وواجب الإنسان أن يؤدي حق الله وحق الوطن فيما يملك من مال وهبه إياه الله سبحانه وتعالى. أما حق الله سبحانه وتعالى فهو:

١- نوع مفروض محدد وهو الزكاة التي يجب ما دام الإنسان مالكاً لما تجب فيه الزكاة.

٢- نوع اختياري وهو البر والتصدق والتبرع والإحسان الذي حث عليه الإسلام كثيراً في مجالات الخير والصلاح.

.. أما حق الوطن فهو ما يفرضه ولي الأمر الشرعي من حقوق في المال وهو ما يسمى بلغة العصر «الضرائب» التي تنفق في وجوه المصلحة العامة اللازمة للأمة بشرط أن تدعو إليها المصلحة العامة وأن تنفق في هذه المصلحة العامة التي استلزمتها. فالزكاة حق الجماعة في عنق الفرد لتكفل لطوائف منها كفايتهم أحياناً وشيئاً من المتاع بعد الكفاف أحياناً. يقول الله عز وجل: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم". فالمستحقون للزكاة ثمانية وهم:

١- الذين يملكون شيئاً دون نصاب الزكاة ولا يستطيعون الاستغناء عنه.

٢- المساكين الذين لا يملكون شيئاً.

٣- عمال الزكاة وهم الموظفون لجمع الزكاة وتوزيعها.

٤- المؤلفة قلوبهم وهم حديثو العهد بالإسلام ممن يخشى عليهم الفتنة أو الذين

يتعرضون لعقوبة المنع من ذويهم لتركهم دين آبائهم.

٥- الأرقاء الذين يفتدون من العبودية بالمال.

٦- المنكوبون بالمغارم.

٧- المجاهدون المحتاجون إلى ما ينفقونه.

٨- الغرباء المنقطعون فمن يعولهم وكل من في حكم هؤلاء اضطراراً وعجزاً عن ولاية أمره بنفسه.

والإسلام يكره الفقر والحاجة ولكنه لم يكن يهدف أن يجعل الزكاة حلاً لمشكلة الفقر في المجتمع الإنساني لأنه يعلم تماماً أن مشكلة الفقر لا تحل إلا بالسعي والعمل ولكن الإسلام شرع الزكاة لجعلها مكافحة للفقر أن أصبح مشكلة ضرورية بعد استنفاد محاولات العمل وتدبيره. فمن لم يستطع تدبير عمل بنفسه أو بتدبير الدولة فهو مكفول الرزق من حصة الزكاة. ولا يخفى أن ضمان الرزق هو أحد الضمانات الأساسية للحرية في المجتمع ومن هنا فإن الإسلام شرع الزكاة لكي يتطهر الإنسان من ذل الحاجة ومن ثم لا يخشى في الحق لومة لائم. فالزكاة فريضة أوجبها الله سبحانه وتعالى لقوله: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم".

وهي بذلك ضمان لوحدة المجتمع والعناية به وليد نواحي النقص فهي من المجتمع وفي المجتمع. فهي فريضة هامة لارتباطها بصلاح المجتمع الذي لا عذر فيه لمن يقعد عن العمل والكسب وهو قادر عليهما أما الذي يقعد عنهما اضراراً لعجز أصابه أو حرج وقع فيه فإنه على المجتمع حق مفروض يؤديه عنه كل من ملك نصاب الزكاة. والرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يقول: "أيما

قوم بات فيهم جائع إلا برأت منهم ذمة الله وذمة رسوله".. ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: "ما آمن بي من مات شبعان وجاره إلى جانبه طاو".

وفي مجتمع ما قبل الإسلام كانت الرحمة منزوعة ولم يكن الغني يقدم للفقير حقه الذي قال فيه سبحانه وتعالى: "والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم". فكان من الطبيعي أن يقوم الفقير كي يطلب حقه بنفسه فنشأ حينئذ ما يسمى بالغارات في وسط ذلك المجتمع الجاهلي وهي غارات دائمة لا تنقطع هددت أمن الآمنين. فكانت تلك الغارات تقوم من أجل حق ضن به الغني على الفقير فأصبح الفقير لا يحس من جانب الغني يرحمه فانتاب إلى بغضه ثم إلى منازلته لأخذ حقه منه. فلقد تجع هؤلاء الفقراء في جماعات متعددة في جميع أنحاء الجزيرة العربية وجعلوا مصدر رزقهم ما يقومون به من السوء على القبائل الغنية أو الأفراد الذين تجمعت في أيديهم صنوف الأموال ولم يراعوا لله فيها. أما في الإسلام فمما رواه أبو عبيد في كتاب الأحوال أن معاذ بن جبل بعث إلى عمر بثلث صدقة الناس – فأنكر ذلك عمر وقال: لم أبعثك جابياً ولا آخذاً جزية لكن بعثتك لتأخذ من أغنياء الناس فتردها على فقرائهم فقال معاذ: ما بعثت إليك بشيء وأنا أجد أحداً يأخذه مني.

فالإسلام أقام المجتمع على عنصر الرحمة، ونحن نرى أن الزكاة اقترنت في الذكر مع الصلاة التي هي عماد الدين. فيقول سبحانه وتعالى: "وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعينط ودلالة ذلك عناية الإسلام بشأنها وعلى شدة حرصه عليها وعلى أن يتركز الإيمان بها في المجتمع اعتقاداً وعملاً. ويقول عز وجل في القرآن الكريم: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة وةالكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب

وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون". ولقد شرع الإسلام نوعاً من الزكاة يسمى زكاة الفطر وفيها أوجب الصدقة على المسلمين جميعاً. يقول عليه الصلاة والسلام: "صوم شهر رمضان معلق بين السماء والأرض ولا يرفع إلا بزكاة الفطر". وزكاة الفطر واجبة على الغني والفقير والحكمة في إيجابها على الغني فهي واضحة في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: "اغنوهم – أي الفقراء – عن ذل السؤال في هذا اليوم – أي يوم العيد". وهي كذلك واجبة على الفقير فعن عبد الله بن ثعلبة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "صاع من بر أو قمح على كل صغير أو كبير حر أو عبد. ذكر أو أنثى، غني أو فقير، أما غنيكم فيزكيه الله، وأما فقيركم فيرد الله عليه أكثر مما أعطى"[1].

وتبدو حكمتها على الفقير في ذلك التدريب له على تقديم المعونة. ولإشعاره بأنه يقدر ويستطيع على المساهمة في نفع المجتمع. ولعل ذلك يكون دافع له على السعي في تحصيل المال فيخرج بذلك عن دائرة الحاجة. وإذا كان المال مال الله والزكاة فرض الله فإن الذين يؤتون الزكاة يدخلون في نطاق قول الله سبحانه وتعالى: "ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآباءنا يؤمنون". والذين يكنزون المال ولا ينفقون في سبيل الله يدخلون في نطاق قول الله: "والذين يكثرون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم". ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين".

فالزكاة هي علاج للنفس من الشح وأنصاف الفقراء وأبناء السبيل فيها

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

يدفع الغني من فضل ما أتاه الله وليشكره على نعمائه وليربي في نفسه عاطفة الرحمة ويزيل من نفس الفقير الضغن والحقد والطمع ويبدلها بالمحبة والألفة والتعاون. يقول سبحانه وتعالى: "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها". والزكاة إلى جانب ذلك عمل تعليمي للإنسان المؤمن على البذل والتضحية في سبيل وطنه ومن أجل إقامة مجتمع قوي..إن الزكاة تطهر نفوس الأغنياء من الشح والبخل. وتطهر نفوس الفقراء من الحقد والحسد والبغض. وتطهر المال من الشر الذي يشوبه ببقاء حق الفقراء فيه وفي هذا يعول عليه الصلاة والسلام: "حصنوا أموالكم بالزكاة".

الصوم:

للصوم في اللغة معان كثيرة يجمعها على كثرتها معنى الإمساك عن الشيء والامتناع عنه. فالإمساك عن الكلام والامتناع عنه صوم كقول الله سبحانه وتعالى: "فقولي أني نذرت للرحمن صوماً، فلن أكلم اليوم إنسياً". وكل ممسك عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم كما قال أبو عبيدة وهو من أئمة اللغة. أما الصوم في الاصطلاح الشرعي أو عند علماء الفقه فمعناه أخص من هذا المعنى العام إذ هو كما قيل: الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وما يقوم مقامهما من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية تقربنا إلى الله ومخالفة للهوى في طاعته. ويقول عمر ﷺ: "ليس لصيام من الطعام والشراب وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف". وعلى المؤمن الصائم التزامات يحددها الله عز وجل في قوله تعالى: "وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين". ويقول سبحانه وتعالى: «"كلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين". ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "الصيام جنة ما لم يخرقها، قيل: وبم يخرقها؟ قال: بكذب أو غيبة".

وصوم شهر رمضان بهذا المعنى من الدعائم الخمسة التي يقوم عليها بناء الإسلام ولقد ثبتت فرضيته بالكتاب الكريم حيث يقول الله سبحانه وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم". ويقول عز وجل في كتابه الكريم أيضاً: "فمن شهد منكم الشهر فليصمه". والصوم واجب على كل مسلم مكلف يستطيع الصوم غير مسافر. ومناط التكليف: العقل، والبلوغ. فلا تكليف على مجنون أو صبي. والعاجز عن الصوم لصغر سنه أو لكبره أو لمرض لا يرجى برؤه منه لا يجب عليه صوم رمضان. وكذلك المسافر كما يفهم من قوله سبحانه وتعالى: "ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"، لقد أرسل الله عز وجل رسوله مُحَمَّداً عليه الصلاة والسلام بهذا الدين لإسعاد البشرية والسمو بها عن التورط فيما يوبقها أو يشق عليها وكان القرآن الكريم المنهج الواضح الذي لا يضل من استرشد به ولا يشقى. من كان أمامه وهاديه.. قال سبحانه وتعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم". فهذا الكتاب الكريم كان ولا يزال هو النبع الصافي الذي أضفى على الإنسانية حياة كريمة حين وصلها بالله عن طريق ما تضمنه من عبادات واشتمل عليه من أخلاق وتوجيهات. والصوم هو أحد العبادات التي دعا إليها الدين الإسلامي وكان للجسد وطهرة للنفس. يقول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: "لكل شيء زكاة، وزكاة الجسد الصوم والصيام نصف الصبرط. وهو الدرع الذي يقي لمؤمن عثرات الانحراف وزيغ الهوى ومسارب الشيطان والطاقة التي تشد من أزر المؤمن حتى يقوى على مغالبة نفسه ولا تهن عزيمته أو تضعف إرادته أمام ثروة طائشة أوة قوة عارمة فلا تلين لغير الحق ولا تأخذه العزة بالإثم فينحرف عن الطريق المستقيم سلوكه، وإنما يتخلق بأخلاق الأتقياء ويتجافى طريق السفهاء دستوره في ذلك قوله صلوات الله وتسليماته عليه: "إنما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائماً فلا

يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم إني صائم". فمن ثمرات الصوم قوة الإرادة وهي بمثابة العقد الذي ينظم جملة من الفضائل. فالصبر والحلم والسخاء والفداء والقناعة والعفو وكظم الغيظ والتزام منهج الدين. كل ذلك من قوة الإرادة. والحياة أنماط من التعب. بها البلاء يتلوه البلاء. وإغراء يلح وفتن وخدع. فمن قهر ذلك كله بإرادة قوية وبأس حديد وعزم شديد نجا من المهلكات وقرت عينيه بجينه ولقي بين الناس مكانة وعند الله كرامة. فمن الناس من يستهويه المال فيأكله من حلال أو حرام. ومنهم من تعهد إليه بأمانة الفرد أو الجماعة فيفرط أو يخون ومن الناس من يتهاون فيما كلفه الله به فإذا هو في تمرد وعصيان فلا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا صدق ولا عهد ولا حياء ولا مروءة. ومن الناس من تفتنه المرأة فنتهك العرض. ومن الناس من يرتد له الأمر من هين أو جليل فيستهين به ولا يعرف له حقاً. وما كان ذلك كله إلا لانهيار الإرادة وضعف العزم وتصدع النفس أمام ما يغريها وما يغويها، فمن طبيعة النفس البشرية أنها وعاء للخير والشر ومزيج من الحق والباطل وصحيلة للرذائل والفضائل. يقول الله عز وجل: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها".. ويقول سبحانه وتعالى: "وهديناه النجدين". ويقول أيضاً المولى جل وعلا: "إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي" وفي هذا يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ: "أجدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها نزاعة إلى شر غاية".

إن الإنسان طموح إلى الكمال وأمنيته الخالدة في الخلاص من كل ما هو شر والاستغراق كلية في كل ما هو طيب من قول أو فعل أو اعتقاد ولذا فإن الصراع بين الخير والشر في نفس الإنسان أمر تقتضيه طبيعة النفس البشرية وتبدو مسئولية الإنسان في هذا الصراع هي العمل على تحقيق الاعتدال في

نفسه بين الخير والشر والرذيلة والفضيلة. وبعبارة أخرى بين ما هو مادي صرف من متطلبات الحياة وبين ما هو روحي صرف من متطلبات النفس. عندما ينجح الإنسان في تحقيق ذلك. في تحقيق هذا التعادل أو التوازن يكون مثالي الحياة واقعي النظرة حسن الصلة بالخالق والمخلوق على السواء. ومجتمع يتحقق فيه ذلك التوازن بين طرفي الإفراط والتفريط في عنصري الوجود المادي والمعنوي لابد أن تتأكد فيه القيم الروحية والفضائل النفسية التي تنظم روابطه على أسس من الأخوة والإيثار والتراحم والبر والتعاون الصادق فيسعى إلى تحقيق أهدافه الوطنية وإصلاحاته الاجتماعية ومشاريعه العمرانية وقد تضافرت قواه وتماسكت جوانبه ورسخت دعائمه حتى تستقيم على الصراط المستقيم الذي دعا إليه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وأشار إليه سبحانه وتعالى عز وجل في قوله: "وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم".

ومجاهدة النفس وحملها على اقتناء الفضائل وتجنب الرذائل أمر مفروض وواجب على كل مسلم ومسلمة ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى ربه وأوجبه على جماعة المؤمنين في قوله: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى". ولقد حض الله سبحانه وتعالى على تزكية النفس وتدريبها على فضائل الأعمال وحميد الخصال موضحاً أن هذه التزكية هي الطريق إلى الفلاح والنجاح. فقال سبحانه وتعالى: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها". والرسول عليه الصلاة والسلام دعا الله سبحانه وتعالى قائلاً: "اللهم آت نفسي تقواها وزكاها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها". وأنسب الطرق لتربية النفس وتصفية الروح والسمو بالوجدان وغرس الفضائل والقيم في نفس الإنسان نتبينها من قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "الشديد من غلب نفسه". وقوله: "طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء".

والصيام والإمساك في رمضان عن المشتهيات وضبط النفس عن متطلباتها والصمود أمام هذه المتطلبات بحزم وعزم وإصرار من فجر كل يوم إلى غروب الشمس ومن أول يوم في رمضان إلى آخر يوم فيه لهو نوع من الاختبار لعزيمة الإنسان وقوة إرادته ومبلغ استعداده للصمود والتضحية من أجل عقيدته ومبادئه وأهدافه العليا وغاياته السامية. وحينما يقتصر الإنسان في هذا الاختبار فهو ينتصر على الباطل بالحق وعلى الشح بالسخاء وعلى الأنانية بالإيثار على الخيانة بالأمانة وعلى الكسل بالجد في العمل. ويقول الله سبحانه وتعالى: "ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور".

فإذا ما وطن الإنسان نفسه على الخير والصلاح بعد أن مهد له الصوم السبيل إلى ذلك فقد فاز بثمرة الصوم المرجوة وهي التقوى، يقول الله سبحانه وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون". والتقوى لها جانبان الأول منها هو جنب المعصية الكبرى والتي لا يغفرها الله قط إلا وهي الشرك بالله وايضاً تجنب ما دونها من المعاصي. والجانب الآخر هو القيام بكل واجب فرضه الله تعالى عز وجل. والإمام علي ﷺ فسر التقوى فقال: "هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل".

وإذا ما حقق الإنسان التقوى. فقد فاز ودخل في نطاق قول الله سبحانه وتعالى: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. لا تبديل لكلمات الله.. ذلك هو الفوز العظيم". وروى في الحديث: إن الله ينادي يوم القيامة: "يا عبادي لا خوف عليكم اليوم. ولا أنتم تحزنون". فترفع الخلائق رؤوسهم ويقولون نحن عباد الله عز وجل.. ثم ينادي الثانية: "الذين آمنوا وكانوا يتقون" فينكس أهل

الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال الكريم عنهم الخوف والحزن كما وعدهم. تلك هي الحكمة الأولى التي من أجلها فرض الصوم. أما الحكمة الثانية فنتلمسها من قول الله سبحانه وتعالى: "شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه". لقد جاء أمر الله عز وجل بالصوم بعد ذكر أن هذا الشهر الكريم نزلت فيه الهداية الكاملة ممثلة في القرآن الكريم فكان لابد أن نحتفل به". والاحتفال يجب أن يكون بما يتناسب مع تلك الهداية الكاملة الممثلة في القرآن الكريم ويكون ذلك بما يعد النفس ويمهدها لاستقبال هذه الهداية على ما يجب وينبغي. وذلك بالصوم: فكأننا بالصوم إيماناً واحتساباً تصل إلى مستويات من شفافية النفس وتطهيرها وتزكيتها فتبتسم هدى السماء وتتشربه فتتفهم في عمق قول الله سبحانه وتعالى: "اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي. ورضيت لكم الإسلام ديناً". أما الحكمة الثالثة لفرض الصيام نتلمسها في قول الله سبحانه وتعالى.

"ولتكبروا الله على ما عداكم ولعلكم تشكرون". فلقد فرض الصوم لتنتهي منه ونص في رحاب الله مغتبطين مستبشرين وقد تزكت منا النفوس وتطهرت منا الأفئدة. فيترتب على ذلك أن نكبر الله ونحمده على هدايته السماوية وعلى توفيته لنا بإتمام الصوم. ولنشكر الله تعالى عز وجل على كل ذلك فيزيدنا سبحانه وتعالى بهذا الشكر هدية وتوفيقاً. كقوله عز وجل: "لئن شكرتم لأزيدنكم".

ولا ريب أن النفوس التي صامت إيماناً واحتساباً وتزكت وتطهرت والتزمت التقوى وكبرت الله عز وجل وشكرته إنما هي نفوس قريبة من الله إذا دعته استجاب وإذا أستلهمته الرشد والصواب الهم وإذا استهدته هدى. فنحن إذا

تأملنا آيات الله عز وجل التي تتحدث عن الصوم وتوجهنا إلى التقوى وإلى تكبير الله عز وجل وإلى الشكر نجد أن الله سبحانه وتعالى يخاطب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فجأة فيقول: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون". ثم يعود سياق الحديث في الصوم مرة أخرى حيث يقول عز وجل: "أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن".

فالصوم مع مظهره العادي الواضح في الامتناع عن الطعام والشراب والملذات هو فوق ذلك عبادة روحية لها آثارها المضوية الكبيرة. فكما أن القرآن الكريم روح سما بالعقل. فالصوم تكليف يسمو بالروح ولذا أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم في شهر رمضان تذكرة لهذه النعمة.

من آثار الصوم:

– تحرير الإنسان من عبودية العادة. فالعادات والمألوف سلطان على النفوس وهيمنة على القلوب حتى تكاد أن تكون طبيعة من طبائع الإنسان لا يقدر على مفارقتها أو التخلص منها. والصوم علاج نافع للتخلص من هذه العادات وتمرين على التخلص من سلطانها والتخفيف من أعبائها وانشغالها ولكي يعرف الإنسان أن هذه العادات يمكن التخلص منها دون أن يلحقه ضرر وهذا يجعله قادرًا على التخلص من كل ما يضره ولا ينفعه فينتقل إلى محاربة العادات السيئة المتصلة بحياته وحياة الآخرين.

– تعويد الإنسان وتدريبه على الصبر. فالصبر من الأخلاق الفاضلة بل هو روح الفضائل الإنسانية. فترك الصائم لطعامه وشرابه وكل ما تشتهيه نفسه يكبح جماح رغبته امتثالاً لأمر الله، فإن شتمه أو سبه شخص فلا يرد عليه بالمثل بل يقول: أني صائم. كأنه يقول في نفسه: لقد عاهدت الله بصومي على

أن أحفظ لساني وجوارحي وأنا لا أنقض عهداً عاهدت الله عليه.

– الرضا وهدوء الأعصاب. أن الصائم الحق يكون راضياً هادئاً ذو روح عالية قوية متيقظة لا يغضب في رمضان مما كان يغضب منه في غير رمضان لأن صومه لله وصبره لله وأجره على الله. والصائم الذي يغضب ويثور في رمضان ولا يتسلح بالصبر هو الذي يظن أن الصوم ليس إلا عقوبة وحرماناً لا تسامح وغفراناً. فتثور نفسه وتضطرب أعصابه.

– المراقبة والخوف من الله. من آثار الصوم أيضاً أن المرء يعرف أن الله عز وجل يراقبه. وأنه يعلم ما يظهره وما يبطنه وذلك لأن الصائم أمين على نفسه رقيب عليها في كل صغيرة وكبيرة وتلك المراقبة والخوف من الله عز وجل تربي في النفس الوازع الديني الذي يفعل في النفوس ما لا تفعله القوة والسلطان. وإذا انتشر الوازع الديني بين الناس أمن المجتمع وعاش الجميع في سعادة وطمأنينة.

– الصوم علاج لكثير من أمراض الجهاز الهضمي لأنه راحة لهذا الجهاز وهو أيضاً فرصة نادرة لطرد ما أصابه من وهن وضعف بعد عام طويل من الأكل والشرب بلا ضوابط ولا حدود وإذا تأملنا قول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع". نجد في هذا القول سراً من اسرار الصحة لو أخذنا به مع شهر رمضان لخرجنا بالكثير من الفوائد للصحة النفسية والصحة البدنية. ويؤكد هذا المعنى أيضًا هذا الكتاب الذي ظهر في أمريكا في شهر سبتمبر سنة ١٩٧٥ من تأليف ٣ أطباء هم: الأم كورث – جيروم أجيل – يوجين بو حيث يقول المؤلفون(:

أن للصوم ٢٧ فائدة أهمها إنقاص الوزن. وتحسن حالة الصائم جسمياً ونفسياً مع شعروه بأنه أصغر سناً، ويعطي لأجهزة الجسم راحة، ويخلصه من المخلفات، ويخلص ضغط الدم ونسبة الكولسترول، ويزيد الطاقة الجنسية،

ويعطي الجسم فرصة لعلاج نفسه، ويزيل التوتر، ويساعد على النوم بعمق، ويحسن الهضم، ويشعر بالانتعاش، ويزيد من حدة الحواس، وينظم الأمعاء، ويؤدي إلى توقد الذهن، ويبطيء من زحف الشيخوخة.

ويقول المؤلفون أيضاً: أن الأمريكيين يحرصون الآن على الصيام كوسيلة لإنقاص الوزن والإقلاع عن التدخين واكتساب عادات غذائية جديدة، وعلاج الضغط وارتفاع الكولسترول. أن الصوم لا يضر بالصحة، بالعكس فإنه يعطي الجسم والأنسجة فرصة للتخلص من السموم والشحم الزائد. فالصوم ملائم لحياة العمل طول اليوم حتى الرياضة ولا يؤدي الصيام إلى تغيير في صورة وتركيب الدجم ولكنه يؤدي إلى زيادة نشاط الانقسام وإنتاج الخلايا والعمليات الحيوية ويزيد إفراز الهيبارين في الفم مما يقلل نسبة الهستامين المسبب لأمراض الحساسية. ولقد أعلن يوري نيكولاييف مدير قسم الصوم في معهد موسكو للعلاج النفسي: أن الصوم ضروري للمعرضين للزحام والعوادم السامة للسيارات وأدخنة المصانع والتلوث الجوي عموماً وأضاف أنه يستخدم الصوم كطريقة فعالة لعلاج انفصام الشخصية الذي يعرف باسم مرض المستقبل. فالصوم يحرك وينشط جهاز المناعة والدفاع ضد كثير من الأمراض.

وأخيراً ففي الصوم مظهر من المساواة فيه يتساوى المعسر والموسر من الفجر إلى غروب الشمس شهراً كاملاً من كل سنة هجرية. والصوم مظهر من الرحمة حيث يشعر المترف بآلام البائسين فيقدر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه فيعطف عليهم. ولقد أعد الله سبحانه وتعالى للصائمين أجراً عظيماً ومغفرة لذنوبهم. كقوله عز وجل: "إن المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، والقانتين والقانتات، والصادقين والصادقات، والصابرين والصابرات، والخاشعين والخاشعات، والمتصدقين والمتصدقات، والصائمين والصائمات، والحافظين فروجهم والحافظات

والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً".

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد". وفي عقب عبادة الصوم شرع الله تبارك وتعالى عيد الفطر لإظهار من صاموا فرحهم فيه بمنة الإفطار بعد الصيام. فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام: "للصائم فرحتان: فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه"[1]. وأيضاً شرح العبد ليكون فرصة مناسبة لشكر الناس لله سبحانه وتعالى على نعمة التوفيق لأداء فريضة الصيام على أكمل صورة وأتم وجه.

وفي يوم عيد الفطر يتجلى الله سبحانه وتعالى – بعد صلاة العبد – بالغفران على عباده المؤمنين الذين هاجروا لذاتهم وتركوا شهواتهم في سبيل مرضاته سبحانه وتعالى يبتغون رحمة منه ورضواناً. ولقد روى الطبراني في معجمه الكبير: عن سعد بن أوس الأنصاري عن أبيه رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "إذا كان يوم عيد الفطر وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا أعدوا يا معشر المسلمين إلى رب كريم، يمن بالخير، ثم يثيب عليه الجزيل. لقد أمرتم بقيام الليل فقمتم وأمرتم بصيام النهار فصمتم، وأطعتم ربكم، فأقبضوا جوائزكم، فإذا صلوا نادى مناد: ألا أن ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى حالكم فهو يوم الجائزة ويسمى ذلك اليوم في السماء يوم الجائزة".

لقد شرع العيد لتحقيق المسرة بين المسلمين بالإحسان إلى الفقراء ومد يد المساعدة إلى المحتاجين وفك كرب المكروبين وإغاثة الملهوفين وتطبيب خواطر اليتامى والمساكين وإدخال السرور على المحزونين والمهمومين وإغناء أهل الفاقة عن السؤال في هذا اليوم المبارك. وبذلك يكون البشر عاماً والأمن شاملاً.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ.

فلقد روى الدار قطني والبيهقي أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: "اغنوهم – أي الفقراء – عن ذل السؤال في هذا اليوم – أي يوم العبد"، فصوم رمضان لا يرفع إلا بزكاة الفطر كقول رسول الله عليه الصلاة والسلام: "صوم شهر رمضان معلق بين السماء والأرض ولا يرفع إلا بزكاة الفطر".

الحج:

هو قصد الأماكن الشريفة لأداء المناسك الشرعية استجابة لأمر الله عز وجل طلباً لثوابه. وبعبارة أخرى هو السفر إلى مكة المكرمة بنية أداء عبادة الطواف حول الكعبة المقدسة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة وتأدية سائر المناسك الأخرى من حلق وتقصير ورمي الجمرات استجابة لله وابتغاء مرضاته. وهو فرض لازم من قصر في أدائه مع استطاعته أثم ومن أنكر وجوبه خرج من جماعة المسلمين. وهو من أهم أركان الدين وأقوى دعائم الإسلام وفيه أنزل الله سبحانه وتعالى قوله الكريم: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً". وهو فرض على المسلم والمسلمة مرة واحدة في العمر وما زاد على ذلك فهو تطوع. فلقد روي عن أبي هريرة ﷺ أنه قال: "خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس: قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، ولن تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع".

ولا يطالب بالحج إلا من يستطيع الإنفاق على نفسه وعلى من يرافقه ممن يعولهم من أسرته. ويشترط أن يكون المال الذي ينفقه في سبيل حجه مملوكاً له مزكى خالياً من الربا خالصاً من الديون والحقوق للغير، وأن يكون الحاج قادراً على تحمل الأسفار فالله سبحانه وتعالى فرضه عند الاستطاعة لقوله عز وجل:

"ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين".

شروط وجوبه:

اتفق العلماء على أنه يشترط لوجوب الحج: الإسلام والبلوغ والعقل والحرية والاستطاعة وبالنسبة للمرأة فيشترط أن يصحبها زوج أو محرم لها لا يجوز له التزوج منها. فعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: "ألا لا تحجن امرأة إلا ومعها محرم". وعنه أنه قال: "لا تسافر امرأة ثلاثة أيام إلا ومعها محرم أو زوج". وقال الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أيضاً: "لا يخلون بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم فقام رجل فقال: "يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا"، فقال: "انطلق فحج مع امرأتك". والسر في ذلك أمن الفساد. وتستطيع المرأة أيضاً الحج في صحبة امرأة أو أكثر من النسوة الثقات أو مع الرفقة المأمونة الطائعين إذا كان الطرق آمنًا فقد روي البخاري عن عدي بن حاتم رضوان الله عليه قال: "بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل. فقال يا عدي هل رأيت الحيرة "فقلت لم أرها يا رسول الله ولكني أثبتت عنها. فقال صلوات الله وسلامه عليه فإن طالت بك حياة لترين الظغينة – وهي المرأة في الهودج – ترتحل من الحيرة إلى مكة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله".

والاستطاعة تتحقق بأن يكون المسافر صحيح البدن ومالكاً لنفقات سفره ومصاريف معيشته وأقامته هو ومن يرافقه ممن يعولهم من أسرته وعلى من يبقى منهم في موطنه بدون سفر حتى يؤدي الفريضة ويعود إلى أهله. ولقد نهى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام عن الاستدانة للحج. ويجوز للشيخ

الضعيف وللمريض بمرض لا يرجى شفاؤه توكيل غيره للحج عنه إن كان له مال.

أركان الحج:

للحج ركنان هما:

١- الوقوف بعرفة من غروب اليوم التاسع من ذي الحجة إلى طلوع فجر اليوم العاشر.

٢- الطواف حول الكعبة المسمى بطواف الزيارة.

واجبات الحج:

للحج واجبات هي:

١- الإحرام من الميثاق.

٢- السعي بين الصفا والمروة، وهو في بعض المذاهب من الأركان.

٣- الحلق أو التقصير، وهو من الأركان عند الشافعية.

٤- الذبح يوم النحر، وهو سنة عند الشافعية ويسمى «بالأضحية».

٥- رمي الجمار.

٦- المبيت بالمزدلفة والوقوف بالمشعر الحرام.

ومن ترك شيئاً من هذه الواجبات وجب عليه ذبح شاة والتصدق بها على الفقراء.

سنن الحج:

للحج سنن ضرويرة يجب الإلمام بها إلماماً تاماً لأهميتها وهي:

١- الغسل (الاستحمام).

٢- صلاة ركعتين.

٣- التلبية وهي "لبيك اللهم لبيك".

٤- دخول مكة من المنية العليا وهي منية كداء من أعلى مسجد مكة.

٥- البدء بالمسجد الحرام.

٦- التكبير ولتهليل عند رؤية البيت.

٧- طواف القدوم.

٨- استلام الحجر الأسود وتقبيله عند الاستطاعة.

٩- المبيت بمني يوم التروية.

١٠- المبيت بالمزدلفة ليلة العيد.

آداب الحج:

من أهم آداب الحج:

١- التوبة إلى الله سبحانه وتعالى واعتزام عدم العودة للمعصية.

٢- التحلي بمكارم الأخلاق والصبر على المكاره.

٣- الإكثار من تلاوة القرآن الكريم وذكر الله عز وجل والاستغفار.

٤- كثرة البر بالفقراء وبالسائلين وأبناء السبيل.

٥- التواضع لله واتباع السنة المطهرة.

٦- الدعاء للنقص ولمن أوصى وللمسلمين.

٧- أن يكون الحج بقصد أداء الغرض لا لغرض الشهرة.

الحج المبرور:

في الحج إظهار العبودية لله تعالى بما يتخلل أعماله من التذلل للمعبود وإبداء مظاهر التقشف وترك أسباب الزينة واللهو ومن وقوف الحاج موقف المتضرع لربه الحامد لمولاه المثنى عليه المستغفر له من الزلات الملازم لأبواب رحمته وغفرانه. وفي الحج أيضاً إظهار لحق الشكر على نعمتي صحة البدن ووجود المال وهما الدعامتان اللتان تقوم عليهما عبادة الحج. ولقد خص الله الحج بهذه الأشهر لما تم فيها من النعم العظيمة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على صفوة خلقه كاجتماع آدم وحواء والتقائهما. ونزول الفداء. وحقن دم إسماعيل ولد سيدنا إبراهيم عليهما السلام. ولتذكر هذه المنن الجليلة والقيام بواجب شكره سبحانه وتعالى عليهما.

ولقد سئل الرسول عليه الصلاة والسلام: أي الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "إيمان بالله ورسوله". قيل ثم ماذا؟ قال: "جهاد في سبيل الله". قيل: ثم ماذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "ثم حج مبرور"[١]. أي الذي لا يخالطه إثم.

إن الحج والعمرة يمحقان الذنوب والخطايا ويمحوان المعاصي والسيئات وينفيان الفقر والعوز والنفقة فيهما كالنفقة في سبيل الله. ولقد روي النسائي والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تابعوا بين الحج والعمرة فإنها ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة".

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة ﷺ.

ويقول عليه الصلاة والسلام أيضاً: "من حج فلم يرفث (يجامع) ولم يفسق (يعصي) رجع كيوم ولدته أمه (أي بلا ذنوب)[1].

وروى النسائي وابن ماجه وابن خزيمة عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم" وفي رواية عنه أن إمام الهدى عليه الصلاة والسلام قال: "وفد الله ثلاثة: الحاج والمعتمر والغازي" وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: "سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: "من جاء يوم البيت الحرام كتب الله له بكل خطوة حسنة وحط عنه بها خطيئة ورفع له بها درجة حتى إذا انتهى إلى البيت فطاف وسعى بين الصفا والمروة ثم حلق أو قصر وأتم نسكه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه".

والحج المبرور مشروط بأن يؤدي الحاج مناسكه في تواضع وخشوع لربه سبحانه وتعالى وأنه لا يريد بهذا الحج إلا وجه الله تعالى ورضوانه لا أي غرض من أغراض الدنيا. والحج المبرور مجمع فيه أعمال البر وهي كثيرة منها الإحسان في معاملة الناس بالقول والفعل والتلطف في مخالطتهم ومعاشرتهم وإطعام الفقراء.. ويقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "لا تحقرن من المعروف شيئاً وهو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقى، ولو أن تعطى صلة الحبل، ولو أن تعطى شسع النعل، ولو أن تنحى الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تلقى أحاك ووجهك إليه منطلق. ولو أن تلقى أخاك المسلم فتسلم عليه، ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض".

والحج المبرور يرجع صاحبه زاهدًا في الدنيا راغباً في الآخرة ويكرس حياته

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لطاعة الله وعدم مخالفته بالعصيان. ولقد قال الحسن في إمارة من برحجة: أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. ومن حج أو اعتمر بمال حرام أو فيه شبهة سقط عنه الواجب وحرم عليه ولقد روى أبو هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال: "إذا خرج الحاج حاجا" بنفقة طيبة (حلال) ووضع رجله في الغرز «ركاب الدابة» فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لبيك وسعديك زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور. وإذا خرج بالنفقة الخبيثة (المال الحرام) فوضع رجله في الغرز فنادى: لبيك، ناداه من السماء لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مبرور"[1].

ويروي عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: "كنت جالساً مع النبي ﷺ فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف فسلما ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك. فقال صلوات الله وسلامه عليه: أن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت. فقالا: أخبرنا يا رسول الله فقال الثقفي للأنصاري سل. فقال: أخبرني يا رسول الله فقال جئتني تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه وعن وقوعك عشية عرفة ومالك فيه وعن رميك الجمار ومالك فيه وعن تحرك ومالك فيه مع الإفاضة، فقال والذي بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك. قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقك خفا ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة يقول عبادي

(١) رواه الطبراني في الكبير.

جاءوني شعثاً من كل فج عميق يرجون جنتي. فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها. أفيضوا عبادي مغفوراً لكم ولمن شفعتم له. وأما رميك الجمار فلك بكل حصاه رميتها تكفير كثيرة من الموبقات وأما تحرك فمدخور لك عند ربك وأما خطيئة وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك. قول أعمل فيما نستقبل فقد غفرت لك ما مضى"[1].

والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة". وكما أن الله تعالى أعد الثواب بين أيضاً العقوبة التي تقع على تارك الحج مع استطاعته عليه في قوله عز وجل: "إن عبداً صححت له جسده ووسعت عليه في المعيشة، تمضي عليه خمسة أعوام لا يعدو إلى لمحروم". ومن فريضة الحج نستخلص فروضاً عميقة الأثر وحكمة بالغة تؤكد ما فيه من جماعية ووحدة في القلوب والمشاعر:

– منها أن الحج سلوك اجتماعي موحد يجتذبه المسلمون في أيام الحج وبها يجب أن يقتدي المسلمون في جميع أقطارهم وعلى كافة المستويات. جنساً ولوناً ولغةً، ففيها كما في جميع مباديء الإسلام قوام حياتهم وصالح دنياهم وآخرتهم. والسلوك الجماعي الموحد يعني أن المسلمين يد واحدة.

– ومنها أن الحج شعور مكتمل بمعاني الإخاء والمساواة. ولقد قال الرسول الكريم في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، أيها الناس إنما

---

(١) رواه الطبراني الكبير.

المؤمنون أخوة فلا يحل لامريء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه. أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى". وفي إطار هذه المعاني يجب أن يشعر المسلمون بمشاكل بعضهم البعض. وأن تتوحد المشاعر والغايات والأهداف. فالإسلام له مباديء عامة واحدة يجب أن يلتزم بها كل مسلم وأن يؤمن بها ويعمل على تحقيقها.

– ولعل من أهم الدروس التي نتعلمها من الحج: درس الأمانة. أمانة المرء مع نفسه ومع الناس. فلا يقبل إلا حلالاً طيباً. ولا يتعامل إلا بالحلال الطيب. وهذه الأمانة تقتضي أن تكون نفس المسلم راضية مطمئنة إلى عملها، ساعية جهدها إلى العمل الصالح الذي تقر به العين ويهدأ به الخاطر ويرتاح له الضمير.

– ومن غايات الحج تعويد الناس على الصبر والامتثال في الأعمال والأسفار. وعلى قدر صبر الإنسان واحتماله وامتثاله يكون قبول عبادته. فالمغفرة للصابرين. المتسامحين. العافين. وتكون تلك الأيام تدريباً وتمريناً على الصبر ومنافحة النفس الأمارة بالسوء.

– ومن غايات الحج أيضاً المساواة التي تبدو وتتضح في تجرد الحجاج من ملابسهم وزيناتهم المتفاوتة ولجوءهم إلى لباس موحد لا يظهر فيه التفاوت المعروف في الملابس العادية. لا اختلاف بينهم. لا تمايز في مظهرهم. الكل يتجه إلى الله في ضراعة يسأله التوبة والمغفرة وقبول العمل والرضى من الله. وبذلك يحس الكل ذل الحاجة إلى الله سبحانه وتعالى. الكل في حاجة إلى رحمة الله عز وجل. فترتفع نفس الفقير وتعلو في نفسه منزلته ويسترد فيها قيمته وعزته وكرامته لأنه يرى الجميع – الغني وصاحب الجاه – يتضرعون إلى الله سبحانه

وتعالى ويطلبون المغفرة والرحمة فلا يذل ولا يضعف إلا لله وحده عز وجل.

– ومن غايات الحج أيضاً أنه مؤتمر للمسلمين وطريق للتغيير والتقدم والنهوض بالإنسانية فهي الفريضة الوحيدة التي لا تؤدى إلا بصفة جماعية وهي بذلك مؤتمر عام يستطيع فيه الحجاج عرض ما عندهم من المعارف ويتبادلون الآراء في أمورهم وهذه هي مظاهر الوحدة بين المسلمين.

إن الإرادة الإلهية التي شاءت أن تختتم الرسالات السماوية بالرسالة المحمدية شاءت كذلك أن تختتم بشريعة الحج أركان الديانة الإسلامية تبعًا لقول الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: "بني الإسلام على خمس:

"شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً". والحج فضلاً عن كونه فريضة دينية وركيزة إسلامية فهو دعوة أبي الأنبياء والخلفاء – إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام. إذ يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: "وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك. ومن ذريتنا أمة مسلمة لك. وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم". ولا عجب إذا ما تحققت الدعوة واستجاب الله سبحانه وتعالى بدعوة الأنبياء مجابه. ولقد دوى صوت الآيات الكريمة يقرع أسماع المسلمين والنبيين من قبل: "وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت. أن لا تشرك بي شيئاً. وطهر بيتي بالطائفين والقائمين والركع السجود. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل سامر يأتين من كل فج عميق، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير. ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا ندورهم وليطوفوا بالبيت العتيق".

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أن تجمع فريضة الحج – ختام القواعد الإسلامية – جميع الفروض الإسلامية ففيها: التوحيد في التلبية.والإيمان كله. وفيها الصلاة. وفيها الزكاة. وفيها الصوم لمن وجب عليه الفداء. وفيها إلى جانب ذلك مظهر الجهاد من حيث الاستعداد وتحمل مشاق السفر وتغيير الأجواء والملبس والمسكن وما اعتاده الإنسان من حياته العادية وما يتقيد به الحاج من الأزمنة والأمكنة. وكما يقال فهو مسك الختام وأعلى درجات الإيمان. وكفى بالحج تبصرة وتذكرة حينما تجد نفسك فرداً في هذا الحشد الحاشد من وفد الله حجاج كعبته وعمار بيته الحرام بين جموع اختلفت ألوانهم وأشكالهم وتنوعت لغاتهم ولهجاتهم. غنيهم اختلط لفقيرهم. وعظيمهم بحقيرهم. الكل هنا. في هذا المكان. سواسية أمام الله كأسنان المشط – ليس لأحدهم فضل إلا بالتقوى –. الكل في زي واحد.. في حضرة إله واحد. يوحدون الواحد. وينادون الواحد. بإيقاع واحد "لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك. إن الحد والنعمة لك والملك. لا شريك لك".

الإيمان في القرآن الكريم

مُحَمَّد رجاء عبد المتجلي

الإسلام شريعة إنسانية خالصه

لم يجعل الله عز وجل شريعة الإسلام خاصة بطائفة معينة أو بمجتمع محدود، ولم يحدد لها منهجاً معيناً، ولكنه جل شأنه جعل الإسلام ديناً عاماً لجميع الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وشريعة خالدة إلى يوم القيامة، وأنزله على نبي عربي تكريماً للعرب، كما كرم أمماً أخرى برسل بعثوا منها، ولكن هذه الأمم قد غيرت وبدلت في دينها، فنقل الله عز وجل شرف النبوة منهم إلى العرب، فأدوا رسالتهم على الوجه الأكمل وحافظوا على دينهم، ونشروه في كثير من دول الشرق والغرب في أقل من قرن من الزمان، ودخل فيه الناس أفواجاً وأصبحوا أخوة متحابين، وبذلك كان العرب هم أول من حملوا راية الإسلام، وكانوا أمناء على تطبيق مبادئه ونشرها.

والإسلام كشريعة عامة قد وضع أسساً ودعائم رئيسية من العقيدة والسلوك والمعاملات يجتمع عليها الأمم والشعوب، ووضع حلولاً للمشكلات البشرية، لأنه جاء بقواعد عامة تتوخى مصلحة الناس، برفعها الحرج، وتوخيها اليسر، وتقديرها لمصالحهم ورعاية حقوقهم. وهذه القواعد تتفق مع العقل والمنطق السليم، وهي: العدل والحرية، والحق، والسلام، والرحمة، والإيثار، والإحسان، وتكافؤ الفرص بين الجميع.

وقد اجتمعت في الإسلام جميع عوامل الصلاحية والبقاء لكل الأمم، بما يحوي من قوى الإقناع، والطاقة البشرية، وتحقيق الهدف من تشريعاته التي ترشد إلى الحق والعدل في صورتهما الكاملة، وتترك الصورة التي تختلف باختلاف البيئة وظروف المعيشة توضع في الإطار الذى يتفق مع قانون الحق والعدل، وتتمشى مع القاعدة الشرعية التي تقول: (لا ضرر ولا ضرار).

أن الإسلام يهدف إلى الرقي والكمال، والمحافظة على الأنفس والأعراض والأموال، ومبادئه هي المنقذ الوحيد من العوامل التي تفرق بين الطوائف والأمم، فقد قرر حقوق الإنسان، ودعا إلى حماية المجتمعات من الشرور والآثام، وحث على الفضائل، وقد أنزل الله عز وجل في وصف رسوله صلوات الله وسلامة عليه قوله سبحانه وتعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ). [1]

ومن الأدلة على خلود الإسلام ما يأتي:

١- وفاؤه بحاجة الإنسانية جميعاً.

٢- تشريعاته التى تضمن قيام الإنسانية كلها في محيط واحد.

٣- عدم تعارضه لما يثبت من حقائق العلم، أو يختلف مع منطق الفكر.

٤- كونه من عند الله عز وجل رب العالمين، ورب المشرق والمغرب، ورب الأمم الإنسانية كلها، وليس هناك إله غيره: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ* الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ). [2]

---

(1) الآية (١٢٨) من سورة التوبة.

(2) الآية (٢١) و(٢٢) من سورة البقرة.

٥- اختلاف الألوان والأجناس والأحساب والأنساب والبيئات لا يمنع من توجيه الدعوة إلى جميع الناس، فهم متساوون أمام الله عز وجل، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالإسمان وعمل الخير والتقوى، فهم جميعاً يرجعون إلى أصل واحد، يقول جل شأنه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً). [١]

والتفاضل بحسب التقوى والأعمال الصالحة هو روح العدالة والإنصاف، لأن العنصر واللون والحسب والنسب والصفات الطبيعية التي خلق الناس عليها، كل هذه الأمور لا دخل لهم فيها، ولابد لأحد في اكتسابها، ولذلك لا يترتب عليها حساب ولا ثواب ولا عقاب، أما ما يكتسبه الإنسان بمجهوده، وما يعمله بإرادته، كالعلم والإنتاج والكرم والمروءة، والعمل على ما فيه خير ومنفعة الناس فهو أساس التفاضل، وبذلك يقضي الإسلام على عوامل الفتن والحروب والعداوة والبغضاء، أما الذين يفتخرون بلونهم وعنصرهم فهم دعاة العنصرية ومشعلو نار العداوة والحروب.

وفي الشريعة الإسلامية أمور ثابتة وأخرى متطورة، فالأمور الثابتة هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإسلام الوجه لله عز وجل، والعبادات والأخلاق الحميدة، التي تحدث عنها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، وأحكام المعاملات والمواريث، وحدود الجنايات، فهذه الأمور كلها قد حددها الشارع ولا يستطيع أحد لها تغييراً.

والأمور المتطورة هي: الاجتهاد، والرأي، والقياس، والاستحسان، فيما لا نص فيه من الكتاب أو السنة، والعمل على ما فيه مصلحة المسلمين عامة،

---

(١) الآية (١) من سورة النساء.

ومن الأمور المتطورة أيضاً منع ما يفسد الصلة بين الناس، أو يسيء إلى الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية، وهكذا تتجدد مباديء الشريعة الإسلامية لتصلح المجتمعات، وتحل المشكلات البشرية، وهذا من أسرار خلودها.

الإسلام دين المسلمين ودين أنبياء الله أجمعين

لقد اختلف في تعريف الإسلام، وقال العلماء في تعريفه الشيء الكثير.

فقيل: أنه من السلامة والخلاص من النقص والشوائب.

وقيل: هو من السلام الذي هو ضد العدوان، سلام بين الإنسان ونفسه، وسلام بينه وبين ربه، وسلام بينه وبين غيره من الناس.

وقيل: هو من الانقياد والامتثال والاستسلام لأمر الأمر بلا اعتراض، أي الانقياد والامتثال والاستسلام لأوامر المولى تبارك وتعالى، بتجنب نواهيه.

وقد تطرف بعض المسلمين حتى خرجوا بهذا المعنى عن قيمته الحقيقية ومعناه الأصيل، ظانين أن الاستسلام هو ذلك السلوك السلبي الذى يهدد معنى الإنسانية، وصار الإسلام في ظهرهم مجرد خضوع وخشوع.

أن الأنبياء جميعاً عليهم صلوات الله وسلامه قد انقادوا وخضعوا لله عز وجل، وأسلموا وجوههم إليه، ولم يستكبر أحد منهم عن طاعته، بما فيهم سيدنا عيسى عليه السلام، الذي اتخذه النصارى إلهاً من دون الله، والذي تحدث القرآن الكريم عن عبوديته لله تبارك وتعالى بقوله: (لَن يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً). [1]

وقد وردت في القرآن الكريم آيات تدل صراحة على أن الإسلام هو دين

([1]) الآية (١٧٢) من سورة النساء.

الأنبياء جميعاً، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء، من ذلك قول الله جل شأنه عن سيدنا نوح عليه السلام: (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) [1]، وقوله عن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام: (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) [2]، وقوله جل شأنه على لسان سيدنا يعقوب وهو يوصى بنيه: (فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [3]، فيجيبه أبناؤه بقولهم: (نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) [4]، وقوله عز وجل على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: (أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) [5]، وقوله جل شأنه على لسان سيدنا موسى عليه السلام لقومه: (يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ) [6]، وقد قال الحواريون لسيدنا عيسى عليه السلام: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) [7].

وإنما كان الإسلام دين الإنبياء جميعاً لسببين، هما:

الأول: أن الأديان كلها من عند الله عز وجل، والله يحب من عباده الخضوع له وإسلام الوجه إليه.

الثاني: أن العقائد واحدة في جميع الأديان، وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له، وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

---

(1) الآية (٧٢) من سورة يونس.
(2) الآية (١٢٨) من سورة البقرة.
(3) الآية (١٣٢) من سورة البقرة.
(4) الآية (١٣٣) من سورة البقرة.
(5) الآية (١٠١) من سورة يوسف.
(6) الآية (٨٤) من سورة يونس.
(7) الآية (٥٢) من سورة آل عمران.

ويشمل الإسلام الوصايا الخلقية التي وردت في الشرائع السماوية السابقة، من الصدق والأمانة، والإحسان إلى الوالدين والجار، وإيتاء الحقوق لذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل، واجتناب الفحشاء والمنكر، وكذلك العبادات، وهي: الصلاة والزكاة، والصوم، والحج، فالإسلام بهذا "لا يختلف عن بقية الأديان الأخرى في هذا المعنى العام، وإنما يكون معها وحدة منسجمة لا تعارض بينها ولا تضارب".

الإسلام مصدق للأديان السماوية ومهيمن عليها

جاء الإسلام لهدفين رئيسيين، أولهما التصديق برسالات السماء المنزلة على الأنبياء السابقين، والإقرار بأصولها الأولى: التي لم يطرأ عليها تبديل أو تغيير أو تحريف. وثانيهما: الهيمنة على تلك الأديان. وقد ورد ذكر هذين الهدفين صراحة في قوله عز وجل: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ) [1]، أي مصدقاً لما بين يديه من جنس الكتب، ومهيمناً على جميع الرسالات الدينية السابقة عليه، بتأكيد ما فيها أو رقابتها أو تصحيح ما عرفه أهل الكتاب منها، إذ من المعلوم أن أي كتاب من الكتب السماوية المعروفة لا يمكن إثبات جميع محتوياته تاريخياً وروائياً، بنفس التواتر الذي ثبت به القرآن الكريم، ككتاب نطق به الرسول صلوات الله وسلامه عليه على أنه من عند الله عز وجل، وعلى ذلك فشهادته قاطعة وحجته دامغة، وأن أي شريعة سماوية أو وضعية لا تقوى على مجاوزة القرآن الكريم، وهو أن كان مقراً لها ومتسامحاً معها إلا أنه مهيمن بالحق عليها.

أما الهدف الأول: وهو التصديق، فيدلنا عليه أن الرسول ﷺ جاء بشريعة

---

(١) الآية (٤٨) من سورة المائدة.

تشتمل على ما جاء به الأنبياء قبله من العقائد والعبادات والأخلاق، ولم يبعث لهدم دين، ولكنه بعث لإعادة الدين سليماً كما كان في زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه (مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟. قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)، وهذا من أوضح الأدلة على تكامل الرسالات السماوية في روحها ومعناها، وأن اختلفت صورها وأشكالها حسب مقتضيات التطور وحاجة البشرية.

وأما الهدف الثاني: وهو الهيمنة، فذلك لكونه– أي القرآن الكريم– أعم من الشرائع السابقة، وأوسع نطاقاً، وأتم تشريعاً، وهذا هو سر بقائه على مر الأزمان والعصور، وصلاحيته لكل زمان ومكان.

وقد وصف المولى تبارك وتعالى القرآن الكريم بقوله: (يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ). [1] وبقوله جل شأنه: (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ) [2].

ولكون القرآن الكريم جامعاً للشرائع السماوية السابقة، وزائداً عليها بما يتمم الشريعة، فإن الذي يؤمن به يؤمن ضمنياً بجميع الرسل السابقين والشرائع السالفة، وليس الإيمان بالشرائع السالفة مغنياً عن الإيمان بالإسلام، لأن المؤمن بالكل يعد مؤمناً بالبعض، والذي يؤمن بالبعض لا يعتبر مؤمناً بالكل، وبذلك يكون المسلمون قد التزموا جانب الأمان عندما يؤمنون بجميع الرسل السابقين

---

(1) الآية (١٥) و(١٦) من سورة المائدة.

(2) الآية (٤) من سورة الزخرف.

والشرائع السالفة، وليس الإيمان أهل الكتاب من قبلهم.

والشريعة الأخيرة هى التى يجب إتباعها، لأنها اشتملت على ما جاءت به الشرائع السابقة، من نواحي تهذيب الأخلاق في كل المجالات وزادت عليها، وبناء على هذا فغير المسلم أياً كانت عقيدته يعد كافراً إذا لم يؤمن بالإسلام، يقول الله عز وجل: (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) [1]، ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي ألا دخل النار).

وبهذا يتبين أن الإسلام– بمعناه الخاص– يطلق على الدين الذي أنزل على رسولنا صلوات الله وسلامه عليه، وأن أتباعه هم الذين يسمون بالمسلمين، وهم يستحقون شرف هذه التسمية ما داموا يقومون بحقوقها، وهي: عبادة الله عز وجل وتوحيده، وعدم جعل واسطة بينهم وبين الله عز وجل، وعدم التفريط في الدعوة إلى المولى تبارك وتعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا قاموا بهذه الواجبات ، واتبعوا ما أنزل الله عز وجل إليهم من شريعة الدين ومنهاج الحكم الإسلامي، في أحقاق الحق، وتطبيق القانون الآلهي، وضمان حرية الإنسان وكرامته، فقد استحقوا هذا الشرف العظيم الذي ذكره المولى تبارك وتعالى فى قوله: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ). [2]

الإسلام يدعو إلى السلام ويحث على التعايش السلمي

تدعو الأديان السماوية كلها إلى المحبة والوفاء، والود والتعاطف، والتعاون على فعل الخير، واستخدام العقل للوصول إلى الحقيقة، وأنها تقوم على الدعوة

---

(1) الآية (٨٥) من سورة آل عمران.

(2) الآية (١١٠) من سورة آل عمران.

إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة، وتنهي عن الإكراه والفتنة في الدين، لأن الحرية الدينية هى أساس المسئولية، وأن أصحاب الأديان الأخرى ينظرون إلى مخالفيهم نظرة إشفاق لا نظرة سخط، وأن مرد الخلاف في العقيدة إلى المولى تبارك وتعالى ليفصل فيه يوم القيامة.

ولقد جعل الإسلام المنزلة العليا في حياة المجتمع الإنساني للعقل وحرية الرأي، وجعلهما الدعامة التي تقوم عليها كرامة الإنسان وعقيدته الدينية، إذ لا تكون العقيدة ألا عن اقتناع، ولا يتأتى الاقتناع بدون الحرية، وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله عز وجل: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). [1]

ودعا الإسلام إلى السلام، وحث على التعايش السلمي، وهيأ الفرص التى تحقق هذا الهدف، فليس الإسلام خاصاً بطبقة أو بيئة أو جنس، ولكنه دين البشر جميعاً، والدعوة إليه موجهة إلى كل فرد من بني آدم، وكل من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فهو مسلم، بغض النظر عن جنسه أو بيئته أو لونه، يقول الله جل شأنه: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرًا).[2] والفرص والحقوق متكافئة بالنسبة لجميع المسلمين أمام الله تبارك وتعالى أمام المجتمع، يقول جلت حكمته: (إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ). [3]

وقد أباح الإسلام لأبنائه أن يصاهروا أهل الكتاب، فيحل للمسلم أن

---

(1) الآية (٢٥٦) من سورة البقرة.

(2) الآية (٢٨) من سورة سبأ.

(3) الآية (١٠) من سورة الحجرات.

يتزوج واحدة من أهل الكتاب، فتنشأ ذريتهما من عائلتين: أحداهما مسلمة والأخرى كتابية، وهذا من شأنه أن يجمع بين أهل الإسلام وغيرهم لا أن يفرق بينهم، وأيضاً هو تسامح كبير من الإسلام، حيث سمح للمسلم أن تكون ربة بيته وشريكة حياته وأم أولاده غير مسلمة، وأن يكون أخوال أولاده وخالاتهم من غير المسلمين. ومن مظاهر التجميع أيضاً ونشر السلام بين المسلمين وغيرهم أن الإسلام قد أحل لنا طعام أهل الكتاب، وأحل لهم طعامنا، ويدل على ذلك قول الله عز وجل: (الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ). [1]

وقد جاء في حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها)، فهذا ترغيب للمسلمين في هداية الناس إلى صراط الله عز وجل وإلى طريق الحق، فوظيفة المسلم هي الدعوة إلى الله عز وجل بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى، وبأرق الأساليب، والتحبب إلى من يريد أن يهديه، لعله يستجيب لدعوة الحق، ومن يتصف بهذه الصفات لا يتأتى منه إيذاء الناس أو معاداتهم أو سفك دمائهم.

وحدث على عهد الرسول صلوات الله عليه وسلامه أن خرج جماعة من المسلمين للجهاد، وأعلن أعداؤهم السلام، فلم يقبله المسلمون منهم، وقالوا أنهم أعلنوه تقية دون اعتقاد، فأنكر الله عز وجل عليهم ذلك في قوله تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

---

(1) الآية (٥) من سورة المائدة.

كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) [1]، وقد جعلت الشريعة الإسلامية لإباحة القتل أسباباً مشروعة، ولم يجعل من ضمن هذه الأسباب المخالفة في العقيدة.

والناس في نظر الإسلام بالنسبة للعقيدة قسمان:

١- المسلمون، وهؤلاء مكلفون بالدخول في السلم العام في كل مكان، يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ). [2]

٢- غير المسلمين، وينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: مسالمون، وهؤلاء لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وهم مواطنون في الدولة الإسلامية ويعتبرون من رعاياها، يتساوون مع المسلمين في الحقوق والواجبات، بل وقد يتحمل المسلمون من الواجبات ما هو أشد وأكثر من الواجبات التي يكلفون بها، وقد قال المولى تبارك وتعالى في شأنهم: (لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ). [3]

القسم الثاني: معادون وهم الذين يظهرون حقدهم وعداوتهم للمسلمين، أو ينحازون إلى أعدائهم ويناصرونهم عليهم، وهؤلاء قد أوجب الله جل شأنه على المسلمين مقاتلتهم ومقاومتهم ورد عدوانهم، وهم الذين قال الله عز وجل في شأنهم: (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ

---

(١) الآية (٩٤) من سورة النساء.

(٢) الآية (٢٠٨) من سورة البقرة.

(٣) الآية (٨) من سورة الممتحنة.

وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ). [1]

ولقد التزم الإسلام بذلك في معاملاتهم مع غيرهم، وعاش بين المسلمين أهل الأديان الأخرى، ومارسوا حريتهم الدينية على أتم وجه، ولم يتعرض المسلمون لهم، بل على العكس من ذلك، فقد ردوا عنهم كل عدوان، وشاركوهم في السراء والضراء.

أن الإسلام في مجالاته الواسعة، وفي أنظمته الفريدة، وفي شموله لأحوال الدنيا والآخرة هو الدين الباقي، والشريعة الخالدة للبشرية كلها، حتى يرث المولى تبارك وتعالى الأرض ومن عليها، وذلك تحقيقاً لقول الله جل شأنه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [2].

إن الإسلام هو دين الإنسانية جميعاً، يقوم بينها مقام الشمس في عالم الطبيعة بين بقية النجوم الكواكب، وهو دين السلام والأمن، والكفاية والعدل، يدفع بالحياة إلى النمو والتجديد والتطور، وبالطاقات الكامنة إلى الانطلاق والإنشاء والتسامي، فتملأ فراغ النفس والحياة بالشعور والأمل والعمل.

تعاليم القرآن الكريم موجهة إلى العالم بأسره

أن كلمات القرآن الكريم لتمتاز بالسمو والرفعة، والروعة وقوة التعبير، وهي مختارة، وليس بينها لفظ مستهجن أو مبتذل، وتمتاز جمله بروعة التركيب، لدرجة أن المعنى الغزير الواسع قد عبرت عنه كلمات قليلة واضحة وموجزة، حتى أن الذين لم ينالوا من التعليم إلا حظاً قليلاً لا يجدون صعوبة في فهمه. وأننا لنجد في القرآن الكريم إشعاعاً ومرونة وعمقاً جنباً إلى جنب، فلا عجب

---

(1) الآية (٩) من سورة الممتحنة.

(2) الآية (٩) من سورة الحجر.

أن كان أساساً لمباديء وقوانين الآداب والعلوم الإنسانية الإسلامية، وفلسفة الآلهيات، والمذاهب الفقهية، ولذلك نجده حاوياً لكل شيء.

وأنه لمن المعروف أن العقل والعاطفة قوتان متضاربتان لا تجانس بينهما، ومع ذلك فإننا نجد القرآن الكريم يجمع بين هاتين القوتين في الآيات الواردة في العقائد والقوانين، فنرى هذه الآيات تخاطب العقل بالحجة والمنطق، وتتوجه إلى العاطفة بالتأثير والإيحاء في أسلوب رائع بديع، وقانون نفسي فوق مستوى البشر، يمتاز بالمهابة والجلال، ويبعث على الخشوع والتدبر، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم ليتوجه بتعاليمه إلى جميع بني البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم، وأنزلت هذه التعاليم لتطهير النفوس، وتهذيب الأخلاق، وإسعاد القلوب، وتوحيد المجتمع، وإحلال الإخاء والعدالة محل تسلط القوي على الضعيف، وفي القرآن الكريم تصريح بأنه كفيل بحل جميع المشاكل التي تصادف بني البشر، يقول جل شأنه: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [1].

وفي مقدمة الأمور التي يعالجها القرآن الكريم الحق الأسمى والفضيلة، وتأتي بعدها بقية الأمور الأخرى، مثل علم النبوة، والتاريخ، وطبيعة الأرض والسماء، ومعرفة الروح، وما إلى غير ذلك، وكلها ما هي إلا وسائل لتقوية رسالة القرآن الكريم، وإعطائها إقناعاً أشد ووزناً أكبر.

ولقد أوضح الإمام الغزالي، الفيلسوف الإسلامي الكبير في كتابه "جواهر القرآن" أن في القرآن الكريم ٧٦٣ آية تتحدث عن المعرفة، و ٧٤١ آية تدعو

---

(١) الآية (٨٩) من سورة النحل.

إلى الفضيلة، فهذه ألف وخمسمائة وأربع آيات تعد في رأيه أثمن ما في القرآن الكريم، والباقة هو ٥١٢ آية تشبه أن تكون "صدفة" تغلف تلك الجواهر، أي التعاليم.

وان الإيمان في القرآن الكريم يشتمل على هذه الأقسام الثلاث الرئيسية:

١- الإيمان بالله وملائكته وكتبه.

٢- الإيمان بالرسل الذين أرسلهم المولى تبارك وتعالى لهداية البشر.

٣- الإيمان باليوم الآخر.

الإيمان باللّه

(الحقيقة الأولى التي قام عليها الوجود كله)

أن الأديان السماوية كلها قد دعت إلى وحدانية الله تبارك وتعالى، ولا يستطيع أي إنسان أن يقول بغير ذلك، إلا أن هذه الدعوة ما لبثت أن تبدلت وتغيرت وتحرفت، وشابها الكثير من الشوائب الوثنية التي قللت من وضوحها، وعكرت من صفائها، وذلك بما أدخل على رسالات الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ودعواتهم من الشوائب الوثنية التي كانت تقوم إلى جوارها، والتي غالباً ما كانت تملك القوة المادية والقوة السياسية إلى جانبها.

وأن أول شيء يجب الإيمان به في الإسلام هو وجود إله واحد، قادر، خالق لكل شيء، مستحق وحده بالعبادة، ومنفرد بالربوبية، يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: (أفضل ما قتله أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله)، فـ(لا إله إلا الله) هي جوهر الدين، وأساس العقيدة الصحيحة في كل زمان ومكان، يقول المولى تبارك وتعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي

إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) [1].

وكتاب الله الكريم به الكثير من الآيات التي تدعو العقل الإنساني إلى النظر والتأمل والتدبر للوصول إلى وحدنية الله تبارك وتعالى، يقول الله عز وجل: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ) [2]، ويقول جل شأنه: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ) [3]، ويقول جلت حكمته: (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) [4]، ويقول عز وجل: (وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ) [5]، ومحور الارتكاز في سبيل إقناع المشركين بعقيدة التوحيد هو: من هو الذي تجب عبادته؟

ولقد أشار القرآن الكريم في عدة آيات كثيرة إلى أن الكفار يعترفون بوجود الآله الخالق، والمدبر للكون كقوله جل شأنه: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ) [6]، وقوله عز وجل: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) [7]، وقوله تبارك وتعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ). [8]

ولكنهم مع ذلك قد وقعوا في خطأ جسيم أودى بهم إلى الكفر، وهو

---

(1) الآية (٢٥) من سورة الأنبياء.
(2) الآية (١٩٠) من سورة آل عمران.
(3) الآية (١٨٥) من سورة الأعراف.
(4) الآية (٥) من سورة الطارق.
(5) الآية (٢١) من سورة الذاريات.
(6) الآية (٩) من سورة الزخرف.
(7) الآية (٦١) من سورة العنكبوت.
(8) الآية (٦٣) من سورة العنكبوت.

اعتقادهم بوجود آلهة أخرى ثانوية مع الله عز وجل، لتشفع لهم عنده، وتكسب عطفه ورضاه حسب ما يزعمون، يقول تبارك وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العَذَابِ) [1]، ويقول عز من قائل: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) [2]، ويقول جلت حكمته: (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ) [3]، يوقول عز وجل: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [4]، ويقول سبحانه وتعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [5].

وكان فوق رءوس هذه الآلهة الثانوية (الله) المعبود الأعم الأعظم، والإله الأكبر المدبر للكون بأجمعه، وهو الوالد لجميع الآلهة، لدرجة أن أهل "مكة" أطلقوا على الإناث من آلهتهم "بنات الله"، وفي هذا الشأن يقول المولى تبارك وتعالى: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى* تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى).[6]

وقد اتخذ القرآن الكريم في مناقشة الكفار والمشركين أسلوب المنطق، وقصص الأنبياء السابقين، وما حدث لأقوامهم حينما لم يستجيبوا لما يدعون

---

(1) الآية (١٦٥) من سورة البقرة.

(2) الآية (١٨) من سورة يونس.

(3) الآية (٢٨) من سورة يونس.

(4) الآية (٦٢) من سورة القصص.

(5) الآية (٣) من سورة الزمر.

(6) الآية (٢٢) من سورة النجم.

إليه، وذلك لإقناعهم وإعادتهم إلى رحاب الدين الحق والإيمان الصحيح. والقرآن الكريم حين يناقش المشركين بالمنطق يواجههم بالحقيقة التي يعترفون بها، وهى: أن الله تبارك وتعالى هو وحده الخالق لجميع الكائنات التي تقع تحت أبصارهم، والتي لا تنظر ولا ترى، لأنها كائنات دقيقة لا تشاهد بالعين المجردة، فيدعوهم على أساس تلك المعرفة إلى توحيد الله عز وجل وأفراده بالعبادة، فلا يجوز مطلقاً أن يتساوى الذي لا يخلق شيئاً مع الخالق لكل شيء، يقول عز وجل: (أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ). [1] وأنه لمن السفه أن نتوجه بالدعاء إلى من لا يستجيب لنا، بل ولا يسمع الدعاء، يقول عز وجل: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ). [2]

ومن العقوق أن نترك عبادة الله وهو العلي القدير، والرحمن الرحيم الذى يشملنا بعنايته، ويغمرنا برعايته، ويدفع عنا المكروه حينما نتوجه إليه بالدعاء، ومن الجحود أن نشرك به من لا يملك لنا ضراً ولا نفعاً، يقول جل شأنه: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ* ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) [3]، ويقول سبحانه وتعالى: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) [4]، ويقول جل شأنه: (أَمَّن يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ

---

(1) الآية (١٧) من سورة النحل.

(2) الآية (٥) من سورة الأحقاف.

(3) الآية (٥٣) و(٥٤) من سورة النحل.

(4) الآية (١٦) من سورة الرعد.

الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ). [1]

وهؤلاء المشركون الذين يعتقدون أن المخلوقات تملك لهم الشفاعة عند الله عز وجل، عليهم أن يقيموا الدليل على ذلك، يقول جل شأنه: (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) [2]، و: (أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) [3]، و: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ المِيعَادَ). [4]

وإلى جانب المناقشة عن طريق المنطق ضد عبادة الأصنام، نجد القرآن الكريم يشير إلى إجماع الأنبياء والمرسلين في دعواتهم على وحدانية الله عز وجل، ابتداء من سيدنا آدم عليه السلام إلى سيدنا مُحَمَّد صلوات الله وسلامه عليه، ولا شك في أن كل نبي قد وجه إلى قومه هذه الجملة (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) [5] أما بنصها أو بمعناها، لأنها جملة في استجابة الناس لها بإخلاص وطاعة في سعادتهم ونصرهم.

ولقد اقتضت حكمة الباري ومشيئته أن يجعل رسوله مُحَمَّداً صلوات الله وسلامه عليه خاتماً للأنبياء والمرسلين، وأن تكون رسالته عامة للناس جميعاً،

---

(1) الآية (٦٢) من سورة النمل.

(2) الآية (٢٥٥) من سورة البقرة.

(3) الآية (٣) من سورة الزمر.

(4) الآية (٣١) من سورة الرعد.

(5) الآية (٥٩) من سورة الأعراف.

وشريعته ناسخة للشرائع التي سبقتها، ومعجزته الكبرى الخالدة القرآن الكريم مصدقاً للكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها، ودعوته موافقة في جوهرها لما دعا إليه الأنبياء السابقون. وبمقتضى هذه المميزات التي منحها المولى لرسوله ﷺ دون غيره من الرسل، أخذ يدعو الناس جميعاً إلى توحيد الله عز وجل بعزيمة صادقة، وبيان واضح، وصبر جميل.

أن أول ما يجب الإيمان به كما سبق أن ذكرنا هو وجود الإله الواحد، فاطر السموات والأرض، الرحمن الرحيم، المستحق وحده للعبادة، وإلى جانب هذا يجب علينا الإيمان بأنه هو المشرع، وهو الذي يسيرنا ويوجه مشاعرنا، ويحكم أعمالنا، فيجب أن نطيعه وننيب إليه، وأننا نستطيع التوصل إلى هذه العقيدة بما أودع الله عز وجل فينا من ذكاء فطري وعقلي وإدراك، إلى جانب تأكيد القرآن الكريم لها.

وهذه القوة الفطرية التي أودعها الله عز وجل في الإنسان، يعرف الإنسان عن طريقها الخير والشر، ويميز بين الخبيث والطيب، ويفرق بها بين الظلم والعدل، وبين ما ينفعه وينفع جماعته فيرضى الله عز وجل عنه، وبين ما يؤذيه في حياته ويغضب الرب جل شأنه عليه في آخرته، يقول جلت حكمته: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا). [1] من المعاني السامية، والمثل العليا الرقيقة الرفيعة، كما أثبتت التجارب على مر الأزمنة وتوالي العصور.

وهذا يؤدي بنا إلى أغلاط علمية، وأحكام خاطئة، ولذلك شاء العزيز الحكيم أن يتدارك البشرية برحمته، فأرسل إلينا الرسل– عليهم الصلاة

---

(1) الآية (٧) و(٨) و(٩) و(١٠) من سورة الشمس.

والسلام– مبشرين ومنذرين، وأنزل لنا الكتب السماوية التي تهدينا إلى سواء السبيل، ولم يكلنا إلى ذكائنا الفطري الذي هو عرضة للتغير والضياع. ولقد ضرب الله عز وجل لنا أمثالاً من الأمم السابقة، ليبعدنا عن الوقوع في الزلل، وليشعرنا بالمسئولية، وحتى يكون لنا فيما جرى للأمم السابقة عظة وعبرة، فلا نقع فيما وقعوا فيه، يقول جل شأنه: (وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ).[1]

والإسلام عندما يطلب من الناس أن يؤمنوا بإله واحد، بيده كل شيء لا يحملهم على ذلك إكراهاً، لأن طبيعة الإيمان ترفض الإكراه وتأبى الإرغام، يقول عز وجل: (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ).[2]

إن الإيمان بالله تبارك وتعالى هو أساس الإسلام، الإيمان بوجوده، وبأنه واحد لا شريك له، وأنه متصف بكل كمال يليق بذاته، وأنه متفرد بالخلق والتدبير والتصرف، منزه عن المشاركة في العزة والسلطان، والمماثلة في الذات والصفات، متفرد باستحاق العبادة والتقديس، والاتجاه إليه في الاستعانة والخضوع، يقول جل شأنه: (قل: أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين. قل: أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء؟[3]). وقد استعمل القرآن الكريم طريق المنطق في مخاطبة العقل والوجدان، وإقامة الأدلة والبراهين الداعية إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى.

---

(1) الآية (٣٤) من سورة النور.

(2) الآية (٢٥٦) من سورة البقرة.

(3) الآية (١٦٢) و(١٦٣) و(١٦٤) من سورة الأنعام.

والقرآن الكريم حين يخاطب العقل؛ ويدعوه إلى الإيمان بالله عز وجل، يوجهه إلى التأمل في مظاهر الطبيعة التي تحيط به، من أرض وسماء، وما يربط هذه المظاهر من وحدة وانسجام، وبالتأمل والتفكير يصل الإنسان وهو موقن إلى استحالة أن تكون هذه المظاهر قد خلقت نفسها بنفسها، أو خلقتها قوى متناقضة أو متعارضة، أو أن يكون الكون مخلوقاً من غير هدف. إن الذي خلق هذا الكون هي قوة خلاقة بناءة خارقة، فوق القوى الطبيعية، ترشده، وتدبر شئونه بالحكمة والعلم، والعدل، وبإرادة هذه القوة يتحقق الهدف من هذا الوجود، فيفنى فناء شاملاً، ثم يبعث بعد ذلك في ثوب أبدى حيث لا فناء، يقول الحق تبارك وتعالى: (إذا السماء انشقت، وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت، وألقت ما فيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت[1]، و(إذا السماء انفطرت، وإذا الكواكب اندثرت، وإذا الأرض انفجرت، وإذا القبور بعثرت، علمت نفس ما قدمت وأخرت[2]، (إذا الشمس كورت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا الجبال سيرت، وإذا العشار عطلت، وإذا الوحوش حشرت، وإذا البحار سجرت، وإذا النفوس زوجت، وإذا الموءودة سئلت، بأي ذنب قتلت، وإذا الصحف نشرت، وإذا السماء كشطت، وإذا الجحيم سعرت، وإذا الجنة أزلفت، علمت نفس ما أحضرت[3]. من هذا الدليل المنطقي نعلم أن الكون الذي نعيش فيه سينتهي إلى فناء نهائي لكل وجميع الكائنات التى تحيا فوقه، ثم تبعث الموتى من عهد سيدنا آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، حيث يحيون حياة أبدية لا فناء فيها.

---

(1) الآيات الخمس الأول من سورة الانشقاق..

(2) الآيات الخمس الأول من سورة الانفطار.

(3) الآيات الأربع عشرة من أول سورة التكوير.

وفي الكثير من سور القرآن الكريم نجد البرهان العقلي الذى يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الله عز وجل هو خالق هذا الكون، هو الذى يثبته، يقول المولى تبارك وتعالى: (أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها: وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون[1]، و: (والسماء بنيناها بأيد وأنا لموسعون، والأرض فرشناها فنعم الماهدون، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون[2])، و: (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفصل بعضها على بعض في الأكل، أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون[3].

فالإنسان الذي خلقه الله تبارك وتعالى: وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، لا تتم ولا تكتمل له نعمة التكريم والتفضيل إذا لم يكن قلبه عامراً بالإيمان بالخالق الواحد الأحد، الذى خلق كل ما يحيط به، وتحكم في الوجود والعدم، وقسم الأرزاق ووزع الحظوظ، وقضى بالصحة والمرض، والفقر والغنى، فإذا عمر الإيمان قلب الإنسان، وإضاءة نوره، وتذوق حلاوته، صار عزيز النفس مرفوع الرأس، لا يخضع إلا للذي خلقه في أحسن تقويم، ويصدق فيه قول الرسول صفوات الله وسلامه عليه: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود للكفر كما يكره أن يقذف في النار). وهناك كثير من الآيات

---

(1) الآية (١٦٤) من سورة البقرة.

(2) الآية (٤٧) و(٤٨) و(٤٩) من سورة الذاريات.

(3) الآية (٤) من سورة الرعد.

القرآنية التي تقيم الأدلة المنطقية على قدرة الباريء تبارك وتعالى، وعظيم إرادته وقوته.

أن القرآن الكريم يوجه انتباهنا إلى تلك الأدلة البديهية على الإيمان بالله عز وجل، ذلك الإيمان الذي نقوم على معرفته بحواسنا الداخلية، وذلك حينما يشير إلى إحدى الحقائق النفسية الهامة، وهى: وجود إحساس غريز فطري بالإيمان بالله عز وجل، وهذا ما يجده الإنسان عندما يتحرر من الميول والنزعات، أو من تشتت الفكر الذي تسببه الأعمال الرتيبة الجامدة، أو عندما يتحير في مشكلة أصل الوجود، أو عندما تواجهه المشاق والصعاب، أو عندما تنزل به الحوادث الملمات، فلا يقدر على التخلص منها بمفرده، ونجد هذه الحقائق في كثير من آيات القرآن الكريم، يقول عز وجل: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد، وما يجدد بآياتنا إلا كل ختار كفور[1]، و: (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونای بجانبه، وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض[2]، ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه: (كل مولود يولد على الفطرة).

وسئل إعرابى: كيف عرفت ربك؟. فقال بكل صفاء وبساطة: سبحان الله: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج: وبحار ذات أمواج أفلا يدل ذلك كله على الحكيم الخبير؟.

وفي قصة فرعون نرى القرآن الكريم يصف بالتفصيل شعوره عندما واجهه الموت غرقاً، وأيقن أنه هالك لا محالة، وليست هناك قوة على الأرض تستطيع أن تنقذه من مصيره المحتوم، فنرى الدليل على الإيمان الفطري المفاجيء الذى

---

(1) الآية (٣٢) من سورة لقمان.

(2) الآية (٥١) من سورة فصلت.

يلجأ إليه الإنسان عند نزول الشدائد به، يقول الحق تبارك وتعالى: (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر، فاتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً، حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل: وأنا من المسلمين، الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين؟!!، فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية، وأن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون[1].

وقد كانت الرسل– عليهم الصلاة والسلام– في جميع الأزمنة والأمكنة يعبرون عن استنكارهم الشديد لموقف من يشكون في وجود الله عز وجل، وقد حكى عنهم القرآن الكريم ذلك، إذ يقول المولى تبارك وتعالى: (قالت رسلهم: أفي الله شك؟ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم، ويؤخركم إلى أجل مسمى[2].

وهكذا نرى الإيمان بالله عز وجل قائم على أدلة عقلية، وبراهين بديهية نابعة من البصيرة الداخلية، ولا توجد إلا عند من يتذكر آيات ربه ولا يغفل عنها. والقرآن الكريم يرشدنا إلى أسماء الله الحسنى وصفاته عز وجل أيضاً، وكلها تشير إلى عظمته وكماله وقدرته وحكمته، ومنها: الله، الواحد، الأحد، الصمد، الأول، الآخر، الرحمن، الرحيم، العزيز، العلي، العليم، الخلق، الباريء، المصور، المهيمن، الجبار، المتكبر.

والحق عز وجل يذكر أسماءه الحسنى على هذه الصورة فيقول: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى، يسبح له ما

---

(1) الآيات (٦١، ٦٢، ٦٣) من سورة يونس.

(2) الآية (١٠) من سورة إبراهيم.

في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم[1].

أن كل عاقل يعترف من خلال نظرته إلى الكون بتفوق الله عز وجل وحكمته ورحمته وكماله، وأنه هو وحده المنفرد بهذه الصفات والأسماء، أما الكائنات التي يراها في الكون فهي ناقصة وعرضة للتغير والزوال، وقد ذكر القرآن الكريم الاسم الملائم الجامع الذي يدل على وحدانية الله عز وجل، وهو الواحد الأحد، ويدعوه المسلمون (العلي الأعلى).

وقد دعا المسلمين إلى عبادته والتوجه إليه بالدعاء بهذه الأسماء، يقول عز وجل: (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وذروا الذين يلحدون في أسمائه، سيجزون ما كانوا يعملون[2].

ويحرم على المسلم أن يدعو الله تبارك وتعالى باسم أو صفة لم ينص عليها القرآن الكريم، أو حديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

أن الواحد الأحد لا تدركه الأبصار ولا الحواس، ولا يحيط به الوصف، والقرآن الكريم عندما يدعو الناس إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى فإنه يحول الطاقة الفكرية لدى الإنسان من المحاولة اليائسة لمعرفة كله الله عز وجل وحقيقته إلى التأمل في مخلوقاته وأعماله، وآثار قدرته التي تدل على صفاته وترشد إلى وحدانيته.

ويبين القرآن الكريم أن الله عز وجل فوق جميع خلقه، وأنه لا يشبهه شيء في صفاته، وأنه من العبث محاولة معرفة ذاته أو صفاته بمفاهيم وحدانية الكون أو وحدة الوجود، يقول جل شأنه: (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل

---

(1) الآية (٢٢، ٢٣، ٢٤) من سورة الحشر.

(2) الآية (١٨٠) من سورة الأعراف.

شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل. لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير[1].

ومن أكبر الأدلة على استحالة معرفة كله وجوهر الواحد الأحد هذا المثل الذي ذكره القرآن الكريم في قصة سيدنا موسي عليه السلام حين سأل ربه أن يريه نفسه، فلننظر بم أجابه الله سبحانه وتعالى؟: (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة، وقال موسى لأخيه هارون: اخلفني في قومي وأصلح، ولا تتبع سبيل المفسدين. ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال: رب أرني أنظر إليك. قال: لن تراني، ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني. فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً، فلما آفاق قال سبحانه تبت إليك وأنا أول المؤمنين[2].

فهذه الآيات وغيرها تبين لنا أن المولى سبحانه وتعالى من الممكن وصفه ومعرفة صفاته جزئياً، ولكن لا يمكن إدراك ذاته. وهناك نقطة هامة يؤكدها الإسلام في دعوته إلى الإيمان بالله عز وجل، وهي أنه يرفض الشرك بجميع صوره وأنواعه، وفي القرآن الكريم مزاعم أولئك الذين يقولون بوجود آلهة أخرى مع الله عز وجل، ويخاطبهم بالبراهين القوية المنطقية التي تثبت الوحدانية لله تبارك وتعالى، الوحدانية المطلقة، يقول الحق عز وجل: (قل: يا أهل الكتاب: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا: اشهدوا بأنا مسلمون[3]، و: (لقد كفر الذين قالوا: أن الله ثالث ثلاثة. وما من إله إلا الله

---

(1) الآيتان: (١٠٣، ٠٤) من سورة الأنعام.

(2) الآيتان (١٤٢، ١٤٣) من سورة الأعراف.

(3) الآية (٩١) من سورة المؤمنون.

واحد، وأن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم[1]، و: (أني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين[2]، و: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون[3]، و: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله: إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون[4].

ففى هذه الآية الأخيرة دليل قطعي عن طريق العقل، لا برهان إقناعي على ثبوت الوحدانية لله تبارك وتعالى، لأننا لو فرضنا جدلاً وجود آلهة متعددة غير الله عز وجل في السموات والأرض، فلابد من أن تفسد السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات، فتخرجا عن تظلمهما المرئي، ويهلك من فيهما، لماذا؟.. لأننا لو وجدنا وجود ألهين، فأما أن يتفق هذان الآلهان على إيجاد هذا العالم أو يختلفا، فإن اتفقا فلا يجوز أن يجداه معاً، لأنه يلزم في هذه الحالة اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهو محال، ولا يجوز أن يجده مرتباً، بأن يوجد أحدهما العالم ثم يوجد الآخر نفس العالم، وهذا مستحيل لأنه سيكون تحصيل للحاصل.

ولا يجوز أن يوجد أحدهما بعض العالم ويوجد الآخر البعض الآخر، لأنه سيترتب على ذلك عجزهما حينئذ، وذلك أنه إذا تعلقت قدرة أحدهما بالبعض سد على الآخر طريق تعلق قدرته به، فلا يقدر على مخالفته، وهذا عجز، والعجز مستحيل في حق الله تبارك وتعالى. وأن اختلفا بأن أراد أحدهما إيجاد العالم والآخر إعدامه، فيستحيل عندئذ أن ينفذ مرادهما معاً، ويلزم عليه اجتماع

---

(1) الآية (٦٤) من سورة آل عمران.

(2) الآية (٧٣) من سورة المائدة.

(3) الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(4) الآية (٣٢) من سورة الأنبياء.

الضدين وهو محال.

وأن هذه الآية ترشد إلى أمرين اثنين:

أولهما: بطلان اتخاذ الله عز وجل ولداً، لأن الولادة تقتضي انفصال مادة من الوالد، وذلك يقتضي التركيب، وهو مستحيل في حق الله تبارك وتعالى، ثم أن الوالد لابد وأن يجانس أباه ويماثله، وهو جل شأنه: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[1].

ثانيهما: نفى الشريك له مع إقامة الدليل على تفرده بالألوهية، فلو كان معه آله آخر يشاركه لذهب كل إله بما خلق، واستبد في ملكه، وتصرف فيه تصرف المالك، وعلا بعضهم على بعض ووقع بينهم الخلاف والتحارب، وصار الفساد، وانقلبت موازين الكون، واختل واضطرب.

أن كل ما في العالم، وكل ما في الكون دليل على وجود الله تبارك وتعالى، ودليل على وحدانيته، وكلما تقدم العلم وانفتحت مجالاته في الأمم، وارتقى الفكر الإنساني، سمت البشرية وعلت ووصلت إلى درجة كبيرة من الرفعة، وكلما صفت النفس وطهر القلب شاهد الإنسان أدلة جديدة تثبت صفة الوحدانية لله عز وجل، فوصول الإنسان في القرن العشرين إلى القمر، والدوران حول الأرض، يضيف دليلاً جديداً علمياً على ثبوت الوحدانية لله جل وعلا، وحسن صنعه، وصدق الحق عز وجل حيث يقول: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم، حتى يتبين لهم أنه الحق، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد[2]؟!!).

وهكذا نرى الإسلام لا يقر الشرك، ولا يرضى إلا بعبادة إله واحد، خالق

---

(1) الآية (١١) من سورة الشورى.

(2) الآية (٥٣) من سورة فصلت.

لكل شيء، فرد صمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

الإيمان بالملائكة والجن والروح

أن أولى دعائم الإيمان هي: الإيمان بالله عز وجل، والدعامة الثانية هي: الإيمان بالملائكة، وقد وضح القرآن الكريم أن الملائكة كائنات خارقة للطبيعة، وأنها لا تظهر في عالم الماديات، ولكنها تظهر بأمر المولى تبارك وتعالى فقط، ونجد ذلك في قوله جل شأنه: (وقالوا: اتخذ الرحمن ولدا. سبحانه. بل عباد مكرمون. لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون[1].

وللملائكة وظائف متعددة، بعضها مدون في كتاب الله عز وجل، ووظائفهم تتعلق بالأرواح والأنفس، ويقوم بعضهم بتبليغ رسالات السماء إلى الأرض، والنزول بالوحي الإلهي على الرسل والأنبياء، يقول سبحانه جلت حكمته: (وأنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين[2]، و: (قل: نزله روح القدس من ربك بالحق[3]، و: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون[4]. ومن وظائف الملائكة تأييد الأنبياء، وتثبيت أقدام المؤمنين، يقول الله عز وجل: (وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس[5]، والملائكة من جند الله عز وجل يمد بهم المؤمنين في حروبهم مع أعدائهم، يقول الحق جل وعلا: (إذ تستغيثون بمن فاستجاب لكم: أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله ألا

---

(1) الآية (٢٦، ٢٧) من سورة الأنبياء.

(2) الآية (١٩٢، ١٩٣، ١٩٤) من سورة الشعراء.

(3) الآية (١٠٢) من سورة النحل.

(4) الآية (٢) من سورة النحل.

(5) الآية (٢٥٣) من سورة البقرة.

بشرى لكم ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، أن الله عزيز حكيم[1]، و: (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب، فاضربوا فوق الأعناق: واضربوا منهم كل بنان[2].

وبعض الملائكة ينزلون على المؤمنين لمواساتهم تبشيرهم بالجنة، يقول عز وجل: (أن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم[3].

وبعض الملائكة موكل بقبض الأرواح كعزرائيل ملك الموت، يقول عز وجل: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون[4]، و: (كذلك يجزي الله المتقين الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون: سلام عليكم، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون[5]، و: (أن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم. قالوا: كنا مستشعين في الأرض؟ قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟! فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً[6].

وبعض الملائكة يكتبون أعمال الناس في كتب يحتفظون بها إلى يوم القيامة، حيث يحاسب الناس على أعمالهم، يقول جل وعلا: (وأن عليكم لحافظين، كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون[7]، و: (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس

---

(1) الآيتان (٩، ١٠) من سورة الأنفال.

(2) الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(3) الآيتان (٣٠، ٣١) من سورة فصلت.

(4) الآية (١١) من سورة السجدة.

(5) الآية (٣٢) من سورة النحل.

(6) الآية (٩٥) من سورة النساء.

(7) الآيات (١٠، ١١، ١٢) من سورة الانفطار.

به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد[1].

ووظائف الملائكة جميعها خارقة للطبيعة، ويصفهم القرآن الكريم بأنهم رسل أولو أجنحة، يقول سبحانه وتعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلا: ومن الناس[2]، و: (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء أن الله على كل شيء قدير[3]. ولما كان القرآن الكريم هو المصدر الرئيسي للإسلام، لذلك كان من الضروري أن يتحدد عن طريقه إيمان المسلمين بالملائكة إيماناً قاطعاً.

وهناك نوع آخر من الكائنات الخارقة للطبيعة، وهي: الجن. ولكنا نجد فروقاً كثيرة بين الملائكة والجن، بينها القرآن الكريم، أهمها أن الجن مخلوق من نار، يقول عز وجل: (والجان خلقناه من قبل من نار السموم[4]، وروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار)، رواه مسلم.

والجن منهم الخير ومنهم الشرير، يقول جل شأنه: (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون، فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا[5]، وبمقارنة أوصاف الملائكة بأوصاف الجن نجد أن الملائكة عبيد مشرفون.

---

(1) الآيات (١٦، ١٧، ١٨) من سورة ق.

(2) الآية (٧٥) من سورة الحج.

(3) الآية (١) من سورة فاطر.

(4) الآية (٢٧) من سورة الحجر.

(5) الآيتان (١٤، ١٥) من سورة الجن.

ومن الأمور التي تفرق بين الجن والملائكة، أن الملائكة رسل الله عز وجل، ينزلون بالوحي على الأنبياء والمرسلين، أما الجن فهم مكلفون بالشرائع مثل البشر تماماً، ونجد ذلك واضحاً في الآيات التي تتحدث عن الجن، يقول الله عز وجل: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن: فلما حضروه قالوا: انصتوا. فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين. قالوا: يا قومنا: أنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. يا قومنا: أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم[1].

والجن مكلفون بالإيمان والإذعان إلى تعاليم الإسلام مثل الأنس تماماً، وفى يوم القيامة يحمل الله عز وجل الأنس والجن مسئولية أعمالهم على حد سواء، يقول جل شأنه: (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن: قد استكثرتم من الأنس. وقال أولياؤهم من الأنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله[2].

أما الملائكة فلا يشاركون الناس في التبعات، والقرآن الكريم يخاطب الجن كما يخاطب البشر، ويذكرهم أيضاً بنعم الله عز وجل عليهم، يقول تبارك وتعالى: (سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأي آلاء ربكما تكذبان[3]؟). ويصف القرآن الكريم الجن بأنها أحياناً مستفزة، بينما في كثير من المواضع يبين أن الملائكة متصفون بالفضائل، وليس لديهم شيء من العيوب والنقائص البشرية.

أما بالنسبة للآيات التي وردت في القرآن الكريم تتحدث عن النفس وعن

---

(1) الآيات (٢٩، ٣٠، ٣١) من سورة الأحقاف.

(2) الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

(3) الآيتان (٣١، ٣٢) من سورة الرحمن.

الروح فهي قليلة، وكل ما نستنتجه منها هو أن الروح قوة أو طاقة لا سبيل للحياة. دونها، يقول الحق جل وعلا: (وإذ قال ربك للملائكة: أني خالق بشرا من صلصال من حما مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فيقعوا له ساجدين[١]، و: (فأولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون[٢]. والقرآن الكريم لا يذكر لنا بالتحديد شيئاً عن طبيعة الروح، ولكنه لا يحرم البحث في مثل هذه النفس الخارقة للطبيعة، سواء كان بحثاً مجدياً أم لا، يقول جل شأنه: (ويسألونك عن الروح مثل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً[٣]، ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن الوقوف على حقيقة الروح وأسرارها مما استأثر الله عز وجل بعلمه، وليس ذلك من شأن العقل البشري المحدود، ولا يزال– حتى الآن– الحديث عن الروح وكأنها موضع بحث العلماء، ولكنهم حتى هذه الساعة وبعد هذه الساعة لم ولن يستطيعوا أن يعرفوا حقيقة الروح معرفة واضحة.

وفي مجال الحديث عن الروح بعد الموت يذكر القرآن الكريم أن أرواح الشهداء الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل عقيدتهم أو وطنهم أو عرضهم أو مالهم تحيا في راحة وسعادة أبدية، يقول جل شأنه: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا. بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون[٤].

---

(١) الآيتان (٢٨، ٢٩) من سورة الحجر.

(٢) الآيتان (٨٣، ٨٤) من سورة الواقعة.

(٣) الآية (٨٥) من سورة الإسراء.

(٤) الآيتان (١٦٩، ١٧٠) من سورة آل عمران.

ويوضح القرآن الكريم في موضع آخر ما تصير إليه أرواح الصالحين وأرواح الأشرار بعد الموت بقوله عز وجل: (فأما أن كان من المقربين، فروح وريحان وجنة نعيم، وأما أن كان من أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما أن كان من المكذبين الضالين: فنزل من حميم وتصليه حجيم[1].

الإيمان بكتب الله عز وجل

اختص الله عز وجل شهر رمضان المبارك بنزول الكتب السماوية فيه، فقد ورد أن الرسول ﷺ قال: (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والانجيل لثلاث عشرة خلت منه، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت منه)، وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أنزل لاثنتي عشرة خلت من رمضان، والانجيل لثمانى عشرة. والباقي كما تقدم في الحديث السابق.

وإن الإيمان بالله وملائكته يؤدي بطبيعة الحال إلى الإيمان بكتبه، وأن الرسالات هي: المباديء والشرائع التي اشتملت عليها الكتب السماوية، من العقائد والأحكام والحلال والحرام. والإسلام يوجب الإيمان بجميع الكتب المنزلة، يقول جلت حكمته: (قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط: وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون[2]، ومن هذه الكتب صحف سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول الله عز وجل: (إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى[3]، والتوراة والانجيل، يقول جلت حكمته: (وقفينا على

---

(1) الآيات (٨٨ إلى ٩٤) من سورة الواقعة.

(2) الآية (١٣٥) من سورة البقرة.

(3) الآيتان (١٨، ١٩) من سورة الأعلى.

آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتينا الانجيل فيه هدى ونور: ومصدقا لما بين يديه من التوراة: وهدى وموعظة للمتقين[1]، والقرآن الكريم كتاب رسولنا الحبيب صلوات الله وسلامه عليه، يقول الحق جلا وعلا: (أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن[2]، فمن أنكر بعض هذه الكتب المنزلة فلا يعتبر مؤمناً.

والقرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، لأن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو خاتم النبيين والمرسلين، وكل من يفهم القرآن الكريم ومحتوياته فهماً واضحاً، يدرك أنه العقائد والمباديء الأساسية للعبادات والمعاملات، والمثل العليا للأخلاق والسلوك بين بني البشر، والنظم التي تدعو إلى الكمال والانسجام والتآلف، وتدعو إلى الانساجم الداخلي بين النزعات الشهوانية والنزعات الروحية، والانسجان بين الإنسان ومظاهر الطبيعة، والانسجام بين مختلف فئات الناس، وانسجام الإنسان من مجتمعه الذي يحيا فيه.

وقد ذكر القرآن الكريم طرق هذا الانسجام، وبين أنها مبنية على الإيمان والعدالة، وفهم الطبيعة البشرية فهماً واضحاً واعياً.

ولما يتعرض القرآن الكريم بالتفصيل لتوضيح أسرار الكون وحقائق الحياة، والطرق المفيدة التي ينتفع بها الإنسان، ولكنه يدعو الناس إلى التفكير والبحث لمعرفة هذه الأسرار والحقائق، ويترك المجال واسعاً لاستعمال العقل والفطنة في كل ما يزيد الإنسان علماً أو يكسبه خبرة، ويرشد الناس إلى كل ما يحقق مصلحة الفرد والجماعة، ويرسي أسس العدل بينهم. والقرآن الكريم مع ذلك

---

(1) الآية (٤٦) من سورة المائدة.

(2) الآية (١١١) من سورة التوبة.

يلزم العقل البشري بعدم الخروج عن دائرة العقائد الأساسية والمباديء التشريعية، وتتجلى حكمة الله العلي القدير في ذلك ليهتدي الإنسان إلى الإيمان بربه، والخضوع لمشيئته.

الإيمان بالرسل

إيمان بما هو في نطاق الطبيعة

أن الإيمان بالرسل إيمان بما هو في نطاق الطبيعة، لأن الرسل عليهم صلوات الله وسلامه رجال من بني البشر، بيد أنهم يتميزون عن بقية الناس بأن الله تبارك وتعالى اصطفاهم، وحباهم برسالاته التي أنزلها عليهم على أيدي الملائكة، وأمرهم بتبليغها إلى الناس، وإرشادهم إلى طرق تطبيقها والعمل بها، وأن كونهم بشراً أمر يسهل على المؤمنين إتباعهم، وتصديق ما يخبرون به، والسير على منهاجهم، يقول المولى جل وعلا: (وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين[1].

ومن الحقائق الآلهية إرسال الرسل عليهم السلام للناس على مر العصور، لإرشادهم إلى طريق الحق، وهدايتهم إلى الخير والفلاح، وشاءت حكمة العلي القدير أن تتعهد الإنسان منذ فجر الخليفة بما يصلح أموره، ويتيح له تدبير شئونه، ليحيا حياة سليمة قوية، ويتقدم على مر الزمن، يقول الله عز وجل: (أنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، وأن من أمة ألا خلا فيها نذير[2]. وهكذا نجد الشرائع السماوية والرسالات تنزل على الناس في كل عصر بهدف إرشادهم وهدايتهم إلى طريق الصلاح والنجاح، وكان لكل عصر رسالته الخاصة به،

---

(1) الآية (٨) من سورة الأنبياء.

(2) الآية (٢٤) من سورة فاطر.

وأتيحت فيه الفرصة للاستماع إلى كلمات الله عز وجل، غير أن المباديء الأساسية لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه[1] ". ولقد شبه الرسول صلوات الله وسلامه عليه الرسل عليهم السلام ببناة يبنون بيتاً واحداً، وقد بنى الأوائل القواعد ليكمل الآخرون البناء.

ويدعو القرآن الكريم الناس إلى الإيمان بكتب الله جل شأنه ورسله عليهم السلام بدون استثناء، ويعتبر التفريق بين الرسل والإيمان ببعضهم دون بعض كفراً وضلالاً، يقول جل وعلا: (قولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسى وعيسي وما أوتى النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم، ونحن له مسلمون[2] ، و"والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون[3]"، و": "آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله[4]".

ويتوعد الله عز وجل الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض بالعقاب، يقول جلت حكمته: (أن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقا، واعتدنا للكافرين عذابا مهينا[5]، وأما الذين يؤمنون بكل الرسل فسينالون ثوابهم، يقول عز وجل: (والذين آمنوا بالله ورسله

---

(1) الآية (١٣) من سورة الشورى.

(2) الآية (١٣٦) من سورة البقرة.

(3) الآية (٤) من سورة البقرة.

(4) الآية (٢٨٥) من سورة البقرة.

(5) الآيتان (١٥٠، ١٥١) من سورة النساء.

ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم: وكان الله غفوراً رحيما[1].

ولقد بين الإسلام وأوضح أن رسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه هي خاتمة الرسالات السماوية، وأنها جامعة لأسس جميع الرسالات السابقة، التي تنير الطريق أمام الناس، وتدعوهم إلى الكمال والتقدم الروحي والمادي، يقول عز وجل: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا[2]، و: (ما كان مُحَمَّد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين[3]).

وقد بعث الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى البشرية كلها، على اختلاف أجناسها وألوانها وطبقاتها من غير استثناء، يقول عز وجل: (قل: يا أيها الناس: أني رسول الله إليكم جميعاً[4]، أما الرسل الذين كانوا قبله فقد بعثوا إلى أقوامهم خاصة، ونجد ذلك في قوله تبارك وتعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه: فقال: يا قوم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم[5]، و: (وإلى عاد أخاهم هودا قال: يا قوم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون؟![6]، و: (وإلى ثمود أخاهم صالحاً، قال: يا قوم: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره[7]، و: (وإلى مدين أخاهم شعيباً، قال: يا قوم: اعبدوا الله ما

---

(1) الآية (١٥٢) من سورة النساء.
(2) الآية (٣) من سورة المائدة.
(3) الآية (٤٠) من سورة الأحزاب.
(4) الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.
(5) الآية (٥٩) من سورة الأعراف.
(6) الآية (٦٥) من سورة الأعراف.
(7) الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

لكم من إله غيره[1].

وقد ذكر القرآن الكريم المزايا الخاصة لكل من الرسل، وأنهم جميعاً على خلق عظيم، فيقول عن سيدنا إبراهيم عليه السلام: (إنه كان صديقاً نبياً[2]، وعن سيدنا إدريس عليه السلام: (أنه كان صديقاً نبياً[3]، وعن لقمان: (ولقد آيتنا لقمان الحكمة[4]، وعن سيدنا إسماعيل عليه السلام: (إنه كان صادق الوعد، وكان رسولاً نبياً) وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا[5]، ويقول عن سيدنا إسماعيل واليسع وذي الكفل: (واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل، وكل من الأخيار[6]، وفي سيدنا موسى عليه السلام يقول الحق تبارك وتعالى: (أنه كان مخلصاً، وكان رسولاً نبياً[7]، وعن سيدنا عيسى عليه السلام يقول عز وجل: (ذلك عيسى بن مريم، قول الحق الذى فيه يمترون[8]، و: (قالت: رب أني يكون لي ولد ولم يمسسني بشر؟! قال: كذلك الله يخلق ما يشاء. إذا قضى أمراً فإنما يقول له: كن. فيكون. ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والنجيل: ورسولاً إلى بني إسرائيل[9].

وكما كانت رسالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه عامة لجميع البشر، فهي أيضاً خالدة باقية إلى يوم القيامة، والناس مكلفون بالإيمان بها، واتباع

---

(1) الآية (٨٥) من سورة الأعراف.

(2) الآية (٤١) من سورة مريم.

(3) الآية (٥٦) من سورة مريم.

(4) الآية (١٢) من سورة لقمان.

(5) الآيتان (٥٤، ٥٥) من سورة مريم.

(6) الآية (٤٨) من سورة ص.

(7) الآية (٥١) من سورة مريم.

(8) الآية (٣٣) من سورة مريم.

(9) الآيات (٤٧، ٤٨، ٤٩) من سورة آل عمران.

تعاليمها في كل زمان ومكان.

والرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً متصفون بالكمال البشري، وهم في أعلى مراتب الشرف والفضيلة، وهم قدوة للناس في النواحي الروحية والثقافية، ووظيفتهم هي. التهذيب والتثقيف بما جاء في الكتب المنزلة عليهم، ولا سلطة لهم على عقول الناس وإفهامهم، يقول جل شأنه: (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر[1]، ولا مسئولية عليهم تجاه غير المؤمنين، ولا يستطيعون أن يجلبوا للناس خيراً أو شراً، لو حتى لأنفسهم، يقول عز وجل: (وما أرسلناك عليهم وكيلاً[2]: أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء. أن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون). [3]

ويؤكد القرآن الكريم بشرية الرسل وأنهم ليسوا كائنات خارقة للطبيعة، غير أن الله عز وجل اجتباهم لرسالاته التي أنزلت عليهم، أما في غير نواحي الرسالة والنبوة فهم لا يختلفون عن الناس في الطبيعة البشرية. والرسول صلوات الله وسلامه عليه لم تخرجه الرسالة عن بشريته، يقول الحق تبارك وتعالى: (قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى إنما إلهكم إله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً[4].

ولم تكن له ﷺ أي صفة من صفات الألوهية، ولم تكن له قدرة دفع الشر عن نفس، أو جلب الخير لها من تلقاء نفسه، وكل ما عرفه من أخبار الماضي والحاضر والمستقبل تنزيل من حكيم خبير، ولم يكن هناك أي شيء يقدح في

---

(1) الآيتان (٢٢، ٢٣) من سورة الغاشية.

(2) الآية (٥٤) من سورة الإسراء.

(3) الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

(4) الآية (١١٠) من سورة الكهف.

كماله الخلقي، وصفاته الحميدة، وشمائله العظيمة التي امتاز بها عن غيره من بني البشر، والشرف العظيم الذي منحه الله عز وجل أياه باصطفائه لرسالته ووحيه وعلمه، فقد أدبه الله عز وجل فأحسن تأديبه، واصطفاه على العالمين، بما منحه من الميزات والمواهب والكمال البشري، وأمره بأن يكون مثلاً لعمل الخير والبر، بقوله سبحانه وتعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[1]، وأمره كذلك بالتحلي بالصبر والحلم: (واصبر وما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون[2]، و: (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل[3].

وقد عرف عنه ﷺ- كما وردت بذلك الأخبار- حسن الاستجابة لما أمره به الله عز وجل، من كريم الخلق وحميد الصفات. وأن كل حليم من الناس له هفوات وزلات، ولكن حلمه صلوات الله وسلامه عليه كان يزداد كلما لحق به ضرر أو أذى من المشركين.

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها: (ما خير عليه السلام في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله).

ولما فعل به المشركون ما فعلوا في يوم (أحد) لم يدع عليهم، بل قال صلى الله عليه وسلم: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

وقال أنس رضى الله عنه: (كنت مع النبى- ﷺ- وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبه شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عنقه، ثم قال: يا مُحَمَّد أحمل لي علي بعيرى هذين من مال الله الذي عندك، فإنك

---

(1) الآية (١٦٦) من سورة الأعراف.

(2) الآية (١٢٧) من سورة النحل.

(3) الآية (٣٥) من سورة الأحقاف.

لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك. فسكت النبي ثم قال: المال مال الله وأنا عبده. ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي. قال: لا. قال: لم؟. قال: لأنك لا تكافيء بالسيئة السيئة. فضحك عليه السلام، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير، وعلى الآخر تمر).

لقد بدد الرسول عليه الصلاة والسلام ظلمات الجهل والضلالة والرذيلة بنور الحق والهدى والفضيلة، ولكن حبنا وتعظيمنا له لا يجب أن ينسينا أنه بشر، وتبجيلنا له لا يجعله في منزلة الإله، فنحن لا نعبده ولا نصلي له، ولكننا ندعو له بالصلوات والبركات من عند الله تبارك وتعالى.

غير أن هناك بعض من المسلمين قد فتنوا بحبهم للرسول صلوات الله وسلامه عليه فتنة أبعدتهم عن الحق وهم يعتقدون أنهم يحسنون صنعاً، فبالغوا في تقديس الرسول ﷺ مبالغة أنستهم أنه بشر، وأنه خلق من طين مثل ما خلق سائر البشر، فقالوا عنه أنه: خلق من نور. وقالوا عنه: أنه أول خلق الله عز وجل، واستدلوا على ذلك بروايات موضوعة لأتمت إلى الحقيقة بأي سبب، وغفلوا عن الآيات الواضحة الصريحة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الكريم، والتي يتبين منها حقيقة البشرية التي أكدها الله جل شأنه، وأمر رسوله أن يعلنها إلى الناس في مثل قوله سبحانه وتعالى: (قل: إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي[1]، ثم زاد تأكيدها في آية أخرى تشير إلى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه خلق من نفس الطينة التي خلق منها سائر البشر، وذلك حيث يقول عز وجل: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم[2].

([1]) الآية (١١٠) من سورة الكهف.

([2]) الآية (١٢٨) من سورة التوبة.

ولقد ذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقول الله جل شأنه: (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم[1]، وقد ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور في الآية الكريمة هو الرسول ﷺ، ومن هنا ساغ للبعض أن يقولوا بأن الرسول عليه الصلاة والسلام خلق من نور، جهلاً منهم بما يفهم من الآية الكريمة، إذ لا ريب أن النور الذي جاء في الآية الكريمة هو النور المعنوي الذى يشيء للناس طريق الحق، وليس النور الحسي الذى تراه العين، والذي يضيء كما تضيء المصابيح، وكما تضيء الكواكب.

أن الواقع الذي تطمئن إليه النفوس، وترتاح إليه الصدور، وتتقبله العقول، وتنهض به الحجة، هو أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه نور، لأنه أضاء للناس طريق الخير، بما آتاه الله عز وجل من العلم والحكمة، ومع ذلك فهو مخلوق من التراب الذي خلق منه سائر البشر. وليس يضيره صلوات الله وسلامه عليه في قليل أو كثير أن يكون مخلوقاً من تراب، ما دام الله سبحانه وتعالى قد اصطفاه واختاره لرسالته الكبرى، التي أضاءت المشارق والمغارب، وملأت العالم كله بالهدى والحق والرشاد.

وإن الواقع الذى ترتضيه النفوس، وتطمئن إليه القلوب، هو أن الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أول خلق الله عز وجل منزلة، وأعلاهم قدراً، وليس أول خلق الله وجوداً، وأقدمهم مولداً، لأنه ﷺ في التسلسل الزمني خاتم الأنبياء والمرسلين، فهو مكمل للبناء العظيم الذي أقامه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لإسعاد البشر، منذ خلق سيدنا آدم عليه السلام.

---

(1) الآيتان (١٥، ١٦) من سورة المائدة.

ولا يستطيع مع المنطق السليم والعقل الصحيح أن يكون الرسول عليه الصلاة والسلام من أبناء سيدنا آدم عليه السلام، ثم يوجد قبل أبيه. وكذلك لا يستقيم مع المنطق السليم والعقل الصحيح أن تكون الأفضلية بين الناس بقدم الميلاد، ولا لكان الآباء على الدوام أفضل من الأبناء، وكان الأجداد على توالي العصور أفضل من الآباء والأحفاد.

وإذا كان من واجبنا كمسلمين أن نقدر نبينا حق قدره، فإنه لمن الواجب علينا إلا نسيء الفهم ونتجاوز الحد، فنبعد نبينا الكريم عن منزلته وقدره، فما أبعد الفرق بين التقدير والتقديس، وبين الحب والعبادة.

أن نظام التوحيد في الإسلام في غاية الصفاء والنزاعة، وهو بعيد عن الشرك كل البعد، وبعيد عن كل شائبة من شوائب الوثنية.بولكن.. هل معنى هذا أن الرسل عليهم الصلاة والسلام قد يقعون في أخطاء أو تقصير يتعارض مع العصمة الواجبة لهم؟.

وهناك بعض الآيات في آيات القرآن الكريم تبدو في ظاهرها وكأنها تتجافى مع العصمة الواجبة للرسول ﷺ، بيد أنها عند التأمل وأمعان النظر تتكشف حقيقتها التي لا تخدش العصمة ولا تضعف جانبها، وكذلك كقوله تبارك وتعالى: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه[1]، و: (يا أيها النبي: لم تحرم ما أحل الله لك؟[2]، وقوله عز وجل: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم[3]، وقوله تبارك وتعالى: (عبس وتولى، أن جاءه الأعمى: وما يدريك لعله يزكى، أو يكر فتنفعه

---

(1) الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

(2) الآية (١) من سورة التحريم.

(3) الآية (٦٧) من سورة الأنفال.

الذكرى، أما من استغنى: فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهى[1].

فأما قوله تبارك وتعالى: (وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه)، فالسبب في نزول هذه الآية الكريمة هو أن السيدة زينب بنت جحش إبنة عمة الرسول ﷺ، وحفيدة جده عبد المطلب قد تزوجت في أول الأمر من زيد بن حارثة الاربن المتبني للرسول عليه الصلاة والسلام، فلما قضى زيد منها وطراً زوجها الله عز وجل لرسوله الكريم.

وكانت السيدة زينب بنت جحش غير موافقة على زواجها من زيد بن حارثة، ولكن رغبة الرسول صلوات الله وسلامه عليه كانت قوية في ذلك، وقد أيد الله عز وجل رسوله الكريم في إتمام هذا الزواج حيث نزلت الآية الكريمة: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً[2]، فوافقت السيدة زينب على الزواج من زيد بعد نزول هذه الآية الكريمة.

بيد أن طبيعتها العربية كانت تتأبى عليها أن ترى في زيد بن حارثة زوجاً لها من ناحية الكفاءة، وعلى هذا الأساس ساءت العشرة بينهما، وكان زيد بن حارثة كثيراً ما يشتكي للرسول صلوات الله عليه وسلامه من سوء معاشرتها له، فيقول له الرسول الكريم: (أمسك عليك زوجك وأتق الله).

وعندما بلغ بزيد بن حارثة الأمر إلى نهايته، وأيقن باستحالة دوام الحياة الزوجية بينهما طلقها، وزوجها الله عز وجل لرسوله ﷺ، أي أمره بالزواج منها،

---

(1) الآيات العشر الأول من سورة عبس.

(2) الآية (٢٦) من سورة الأحزاب.

ولم يكن ذلك ألا لحكمة تشريعية جليلة، وهي أبطال تلك العادة الفاسدة التي كانت ضمن العادات الجاهلية المتوارثة، والتي كانت تحرم زواج المتبني بزوجة ابنة المتبني، وذلك لأن هذه البنوة بنوة ادعائية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تترتب عليها آثار البنوة الحقيقية.

أما ما ذهب إليه البعض من المستشرقين من قولهم بأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد ذهب مرة إلى بيت زيد بن حارثة، فرأى السيدة زينب بنت جحش في ثياب المنزل فوقع حبها في قلبه، وأن زيد بن حارثة عندما لاحظ رغبة الرسول عليه الصلاة والسلام في الزواج منها أراد أن يطلقها، فتظاهر الرسول ﷺ بالرفض، وقال له: (أمسك عليك زوجك واتق الله)، ولكنه كان يخفي في نفسه من حبه ورغبته فيها ما أبداه الله عز وجل وأظهره فعلاً، وكان بهذا يخشى الناس في عدم إظهار حبها.

وفي الحقيقة هذا الكلام يتجافى مع سياق الآية الكريمة، لختم الآية في إرادة الله جل شأنه لهذا الزواج، الذى ألزم به رسوله ﷺ، فهو سبحانه تبارك وتعالى يقول: (زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً[1].

والواقع أن الله تبارك وتعالى أراد أن يجعل من السيدة زينب بنت جحش– ﵂– تطبيقاً عملياً لمبدأ يهدم ما كان عليه العرب في الجاهلية، وهو أن زوجة الابن المتبني لا تحرم على الوالد المتبني بعد طلاقها، فقضى بأن يتزوج زيد بن حارثة من السيدة زينب بنت جحش على الرغم من رفضها في مبدأ الأمر، ثم اضطرارها للزواج به بعد نزول الآية الكريمة، ثم قضى بأن يتزوجها الرسول

---

(1) الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

صلوات الله وسلامه عليه بعد طلاق زيد لها.

وأما قوله عز وجل: (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) فليس المقصود منه أنه كان يخفي أمر حب زينب في نفسه ولا يظهر الحقيقة لزيد، وإنما المقصود به أنه ﷺ كان يخفي أمر الله عز وجل له بالزواج منها، ويخشى قول الناس: تزوج مُحَمَّد من زوجة متبناه، وهذا ما يؤكده قول الحق تبارك وتعالى: (زوجناكها)، أي الزمناك بالزواج منها، مع عدم رغبتك في هذا الزواج وخوفك من العواقب التي ستترتب عليه.

وأما قوله عز وجل: (يا أيها النبي: لم تحرم ما أحل الله لك؟)، فلم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام قد حرم ما أحل الله عز وجل له، كما يفهم من ظاهر الآية، وإنما تشير الآية الكريمة إلى قصة مشهورة وقعت بين نساء الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومؤداها أن الرسول الكريم كان إذا انتهى من صلاة العصر مر على سائر نسائه، فيمكث عند كل واحدة منهن بعضاً من الوقت، ولكنه دخل عند السيدة زينب بنت جحش، وشرب عندها عسلاً كان قد أهدى إليها من أهلها، وفعل ذلك عدة مرات، فاتفقت نساء الرسول عليه الصلاة والسلام فيما بينهن على أن تقول كل واحدة منهن إذا دنا منها: أني أجد منك ريح المغافير– وهو نبات طيب الطعم ولكنه متغير الرائحة.

وعندما ذهب الرسول ﷺ عند السيدة عائشة– رضي الله عنها– قالت له هذا الكلام فقال لها: (لا، ولكني شربت عسلاً عند زينب)، فقالت له: لعله قد جرست نحله العرفط. أي من نحلة قد أكلت من نبات العرفط الذى له رائحة كرائحة الخمر.

ولما ذهب إلى السيدة حفصة– رضي الله عنها– قالت له مثل هذا الكلام، وهكذا بقية نسائه، وكان من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام حب الرائحة الطيبة

في الطعام، ويكره الطعام الذي يسبب الرائحة الكريهة، ومن أجل تواطئهن جميعاً على ذلك الكلام حرم الرسول صلوات الله وسلامه عليه العسل على نفسه، فنزل قول المولى تبارك وتعالى: (يا أيها النبي: لم تحرم ما أحل الله لك، تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم).

وأما قوله تبارك وتعالى: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرى والله عزيز حكيم)، فالسبب في نزول هذه الآية الكريمة هو ما حدث بشأن الأسرى عقب انتصار المسلمين الساحق على المشركين في موقعة (بدر)، فقد استشار الرسول صلوات الله وسلامه عليه أصحابه فيما يفعله بشأن الأسرى، فكان رأي عمر بن الخطاب– رضى الله عنه– أن يقتلوا جميعاً، فما خرجوا من (مكة) ألا معتدين، يريدون البطش بالمسلمين وأفناءهم عن بكرة أبيهم، ولكن أبا بكر الصديق– ﷺ– كان رأيه مخالفاً لرأي عمر بن الخطاب، فقد أشار على الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعدم قتلهم وأخذ الفدية منهم، عسى أن يهديهم الله عز وجل ويتبعون الدين الجديد فيما بعد، فقال الرسول عليه السلام: (أن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم، قال: (فمن اتبعني فإنه مني، ومن عصاني فإنك غفور رحيم[1]، وأن مثلك يا عمر مثل نوح، قال: (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً[2]).

ومال الرسول ﷺ إلى رأي أبي بكر الصديق وترك رأى عمر بن الخطاب، وقبل الفداء من الأسرى، فليس كالعفو شيء يفتح القلوب المغلقة، وقال لأصحابه: (لا يفلتن أحد من أسراكم إلا بفداء).

---

(1) الآية (٣٦) من سورة إبراهيم.

(2) الآية (٣٦) من سورة نوح.

وقد افتدى الكثير من الأسرى أنفسهم، ومن لم يستطع افتداء نفسه وكان يحسن القراءة والكتابة، كانت فديته أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين، وقد عفا ﷺ عن بعضهم بغير فداء. وبعد تنفيذ القرار في شأن الأسرى نزل القرآن الكريم معاتباً على اختيار الفدية عن التخلص من أسرى الشرك والوثنية، كما يشير إلى شرائع الأنبياء السابقين في مثل هذه الظروف.والعتاب لم يكن على إطلاق سراح الأسرى ولمن عليهم بالفداء، ولكن على نفس الأسر أثناء المعركة، أي على عمل تكتيكى حدث أثناء القتال، وهو اكتفاء الرسول عليه الصلاة والسلام بإنهاء المعركة بأقل ما يمكن من الخسائر في أرواح زعماء (قريش).

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم أن بعضهم قد خرج مكرهاً، ومن بينهم رجال من (بني هاشم)، والبعض الآخر سبق أن طالب بنقض الصحيفة التي تعاهد فيها القرشيون ضد (بني هاشم) و(بني عبد المطلب)، على ألا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، واستمرت المقاطعة بمقتضى هذه الصحيفة ثلاث سنوات كاملة، حتى إشتد بهم البلاء، وبلغ منهم الجهد، وأكلوا ورق الشجر، فاعتبرها الرسول ﷺ حسنة لا تجزي إلا بمثلها، والمسلمون الذين آثروا الأسر على القتل قلة، وإن بعضهم كان يرجو من استبقاء الأسرى عرض الدنيا وأخذ الفداء، فنزل قول الله عز وجل: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حيكم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم[1]. فالله عز وجل ينهى عن اتخاذ الأسرى قبل الإكثار من قتل الكفار، ويعيب على من يريد عرض الدنيا، ولولا حكم من الله عز وجل سابق بألا يعاقب مجتهداً على اجتهاده ما دام القصد خيراً لكان العقاب الأليم.

---

(1) الآيتان (٦٧، ٦٨) من سورة الأنفال.

فهذا اجتهاد من الرسول صلوات الله وسلامه عليه ظن فيه أن الخير والمصلحة العامة تقتضي ذلك، فقضى به وأمضاه، وكان عتاب الله عز وجل لرسوله عليه الصلاة والسلام لكي يرشده إلى ما يجب أن يكون بعد ذلك، وليس معناه أن الرسول ﷺ قد ارتكب ما يؤاخذ عليه، وهذا هو ما يفهم من قوله تعالى في الآية الثانية: (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم).

وأما قوله جل شأنه: (عبس وتولى، أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى، أو يذكر فتنفعه الذكرى، أما من استغنى فأنت له تصدى، وما عليك ألا يزكى، وأما من جاءك يسعى، وهو يخشى، فأنت عنه تلهى)، فالسبب في نزول هذه الآيات الكريمة أن الرسول ﷺ كان متصدياً للحديث مع الوليد بن المغيرة، يحاول أن يهديه إلى الإسلام، والوليد في ذاك الوقت سيد من سادات (قريش) وكبير من كبرائها، وفي إسلامه كسب كبير، ومغنم عظيم، ومن أجل ذلك كان الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام مستغرقاً في الحديث معه، ومشغولاً به عن أي شيء آخر.

وفي هذه اللحظات مر به عبد الله بن أم مكتوم وكان أعمى، وجعل يستقرئه القرآن، وألح عليه قائلاً: علمني مما علمك الله. فشق ذلك على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وآله أن يصرفه بن أم مكتوم عن الحديث مع الوليد بن المغيرة، الذى كان يتمنى إسلامه ويطمع فيه، فعبس في وجهه وأعرض عنه، فنزلت الآيات الكريمة تعاتب الرسول عليه الصلاة والسلام، وصار المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بعد ذلك يكرم عبد الله ابن أم مكتوم كلما مر به ويحسن استقباله، ويقول له: (مرحباً بمن عاتبني فيه ربي).

أن الرسول صلوات الله عليه وسلامه كان يعتقد أن الفرصة التي يمكن أن

تتم بإسلام الوليد بن المغيرة، سوف يترتب عليها إسلام عدد كبير من (بني مخزوم)، وذلك تبعاً لإسلام زعيمهم، أما عبد الله بن أم مكتوم فيمكن أن يتعلم ما يريده في أي وقت آخر، لا تضيع فيه فرصة وجود المصطفى صلوات الله وسلامه عليه مع الوليد بن المغيرة، وتصدى الرسول الكريم لهداية الوليد.

وهكذا يتبين لنا من كل ما مر أن الأمور التي عاتب فيها المولى تبارك وتعالى الرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ليس فيها أدنى مخالفة لما أمر به الله عز وجل، ولا وقوع فيما نهى عنه، وهي مع ذلك لا تغض في قليل أو كثير من المثل الأخلاقية التي أتصف وعرف بها الرسول ﷺ.

إن الإسلام يؤكد أن الله عز وجل هو المنفرد بالربوبية، وأنه هو وحده المستحق للعبادة، وليس هناك ملك ولا نبي ولا ولى تجوز عبادته، ولا أحد غيره عز وجل يستطيع غفران الذنوب، أو إنزال العقاب بالمخلوقات، أو يملك عفواً عن نفسه أو عن غيره، وليس هناك من يملك الشفاعة عنده، والأولياء في نظر الإسلام ليسوا أناساً فوق الطبيعة، يملكون عند الله عز وجل الشفاعة والمغفرة، أو يستحقون العبادة، بل هم أناس مكرمون، وعباد أصفياء مقربون من الله عز وجل، يفعلون ما أمرهم به سبحانه تبارك وتعالى، ويجتنبون ما نهاهم عنه.

الإيمان باليوم الآخر

بعد الإيمان بالله عز وجل، وملائكته، وكتبه، ورسله، يأتي ركن آخر من أركان الإيمان، وهو: الإيمان باليوم الآخر. ذلك اليوم الذي يبعث فيه الناس، أنه خاتمة الدنيا، والهدف الذي خلق من أجله الإنسان، يقول المولى تبارك وتعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزأه الجزاء

الأوفى، وأن إلى ربك المنتهى[1].

وعلى أساس سلوك الإنسان وأفعاله واعتقاده في الدنيا يكون ما يناله في الآخرة من ثواب أو عقاب، فاليوم الآخر هو يوم الدين، أي يوم الجزاء على ما قدم الإنسان في حياته الدنيا، يقول الحق تبارك وتعالى: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم: فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلاً: ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً[2]، و: (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[3] ، و: يؤمئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا أعمالهم: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[4] ، و: (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية، وما أدراك ما هيه: نار حامية[5]).

وأن من أكبر البواعث على الاستقامة والتقدم الخلقي أن يؤمن الإنسان بيوم الجزاء، فهذا الإيمان سيؤدي به إلى البعد عما يغضب المولى تبارك وتعالى، والهمل على كل ما يجلب رضاه. وقد وصفت آيات القرآن الكريم الثواب والعقاب في مواضع كثيرة، ومع أن هذا الوصف توجد به المصطلحات التى يعرفها الناس في حياتهم اليومية، فإن المصادر الإسلامية توضح أنه ليس في الحياة الجديدة في الآخرة من أمور الدنيا إلا الأسماء، فمن أمثلة الآيات التي تصف الثواب نجد قول الحق تبارك وتعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؟، ذواتا أفنان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؛، فيهما عينان

---

(1) الآيات (٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢) من سورة النجم.

(2) الآيتان (٧١، ٧٢) من سورة الإسراء.

(3) الآية (٣١) من سورة النجم.

(4) الآيات (٦، ٧، ٨) من سورة الزلزال.

(5) الآيات (٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١) من سورة القارعة.

تجريان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؛، فيهما من كل فاكهة زوجان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؛، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان[1].. وإلى آخر آيات السورة الكريمة.

ومن آيات وصف العذاب نجد قول الحق: (أن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، أن الله كان عزيزاً حكيماً[2] وقوله عز وجل: (وعقاب الكافرين النار[3]، وقوله جل شأنه: (وإن جهنم لموعدهم أجمعين[4] وقوله جلت حكمته: (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام[5]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى جاء فيها وصف الثواب والعقاب. ومن ذلك نرى أن كتاب الله عز وجل قد وصف الثواب والعقاب في الآخرة بطريقة تبعث على الإيمان بتعاليم الكتب السماوية، والعمل بما رسمته آيات القرآن الكريم من نظم المعاملات.

أن المؤمن لا يوجد عنده أدنى شك أو ريب في بقاء النعيم في الدار الآخرة، ويدرك أن الكفر يتنافى مع الطبيعة الإنسانية، وأن الذين يصرون عليه تكبراً وعناداً سيكون جزاؤهم العقاب الأبدي يوم القيامة، ومن الآيات التي تدل على خلود النعيم في الحياة الآخرة قوله سبحانه وتعالى: (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل. وأتو به تشابها، ولهم فيها أزواج مطهرة،

---

(1) الآيات من (٤٦ إلى ٦٥) من سورة الرحمن.

(2) الآية (٥٦) من سورة النساء.

(3) الآية (٣٥) من سورة الرعد.

(4) الآية (٤٣) من سورة الحجر.

(5) الآية (٤١) من سورة الرحمن.

وهم فيها خالدون[١] ، وقوله عز وجل: (أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم، خالدين فيها، وعد الله حقاً، وهو العزيز الحكيم[٢].

ومن الآيات التي تثبت خلود النار وأهلها يوم القيامة قوله عز وجل: (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون[٣]: وقوله جل شأنه: (وما هم بخارجين من النار[٤]: وقوله جل وعلا: (خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً[٥]، وقوله تبارك وتعالى: (لا يقضي عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها[٦].

أن العقل البشري لا يستطيع أن يخرج عما هو في نطاق القرآن الكريم، وما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، في كل ما يتعلق بالإيمان بالحياة الآخرة وما فيها.

فلقد أكد القرآن الكريم أن البعث أمر محتم لا شك فيه، لأن الله عز وجل وعد به، والعدالة تستدعي وجوده، ليجازى كل مخلوق بما قدم من خير أو شر، ولو لم يكن هناك بعث لكان خلق الإنسان عبثاً لا فائدة منه، يقول جلت حكمته: (افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون[٧]؟).

ويجب أن نعلم بأنه لن يستوي المفسد والمصلح، والخير والشرير، فلن يكون الفريقان أبداً متشابهين في الحياة وفي الممات، يقول تبارك وتعالى: (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أنى نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات

---

(١) الآية (٢٥) من سورة البقرة.
(٢) الآية (٨) من سورة لقمان.
(٣) الآية (٨١) من سورة البقرة.
(٤) الآية (١٦٧) من سورة البقرة.
(٥) الآية (٦٥) من سورة الأحزاب.
(٦) الآية (٣٦) من سورة فاطر.
(٧) الآية (١١٥) من سورة المؤمنون.

سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون[1].

أن عدالة الله سبحانه وتعالى ستظل الخلائق جميعاً يوم القيامة، ولا يكفي الإيمان بالله عز وجل الخالق المشرع الحيكم، فهذا الإيمان وحده لا يكفي، لأن المؤمن الصالح في نظر القرآن الكريم هو من يتوفر عنده هذا الإيمان إلى جانب العمل بقانون السماء، والإخلاص في العقيدة، والصبر والمواظبة على الطاعة، وهو حين يدعونا إلى ذلك ينبه إحساسنا، ويلفت أنظارنا إلى الشعور بالفرق بين القبيح والجميل، وبين الخير والشر، يقول الحق جل وعلا: (قل: أن الله لا يأمر بالفحشاء[2]، ويقول جل شأنه: (قل: إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق[3]، ويقول عز وجل: (يأيها الذين آمنوا: اجتنبوا كثيراً من الظن أن بعض الظن أثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه[4]؟).

ونجد في القرآن الكريم إشارة إلى أن القديسين والحماء كانوا يعلمون الناس مباديء الخير والمثل العليا، وكثيراً ما ذكر القرآن الكريم أسماء سيدنا إبراهيم عليه السلام، وسيدنا إسماعيل عليه السلام، وسيدنا إسحاق عليه السلام، وسيدنا يعقوب عليه السلام، وسيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا عيسى عليه السلام، فيمن علموا الناس هذه المباديء وتلك المثل، وأمروهم بالصلاة والزكاة والصيام، وسائر أنواع العبادات.

ومن هنا يتجلى حرص القرآن الكريم على الاحتفاظ بما نزل في الكتب

---

(1) الآية (٢١) من سورة الجاثية.

(2) الآية (٢٨) من سورة الأعراف.

(3) الآية (٣٣) من سورة الأعراف.

(4) الآية (١٢) من سورة الحجرات.

السماوية السابقة من مباديء الخير والفضيلة، ونبذ المباديء الثاقبة التى انحرفت ومالت عن طريق الحق، وضل أصحابها سواء السبيل. والقرآن الكريم يتجه في طريقه الخاص ومنهجه بباعث من تلقاء نفسه، فهو حين يحرص على الاحتفاظ بالتراث الديني والأدبي يتمم بناءه ويتوجه بتاج الروعة والبهاء. وقد تطور تعليم صفات الله تبارك وتعالى، ومصير الروح، والواجبات الأدبية للإنسان في القرآن الكريم عن طريق إقناع العقل بمختلف الأدلة، واجتذاب القلب والوجدان أكثر من شيء آخر..

ومن الأمثلة على ذلك أن القرآن الكريم لم يقتصر على منع السكر، ولكنه حرم كل شيء مسكر تحريماً قاطعاً، فاستأصل بذلك الشر من جذوره، ومنه أخذ الفقهاء القاعدة الشرعية التي تقول: ما أسكر كثيره فقليله حرام. ومن الأمثلة أيضاً أن القرآن الكريم بعد توفيقه بين العدل والإحسان في التوراة والإنجيل كمبدأين متباينين في الظاهر، أضاف إليهما أمراً جديداً يمكن أن يكون قانوناً لتهذيب السلوك وتقويم الأخلاق، يقول عز وجل: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها أن الله كان على كل شيء حسيباً[1]، ويقول جل شأنه: (يأليها الذين آمنوا: لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون. فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وأن قيل لكم ارجعوا. فارجعوا هو أزكى لكم، والله بما تعملون عليم[2]، ويقول عز من قائل: (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، ويضربن بخمرهن على جيوبهن: ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن

---

(1) الآية (٨٦) من سورة النساء.

(2) الآيتان (٢٧، ٢٨) من سورة النور.

أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو أخواتهن أو بني أخواتهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من يزنتهن، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون[1]، وقوله تبارك وتعالى: (يأيها الذين آمنوا: ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات: من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم. ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض، كذلك يبين الله لكم الآيات، والله عليم حكيم[2].

وإذا قرأنا الوصايا العشر لسيدنا موسى عليه السلام وجدنا أنفسنا في رحاب القوانين الأساسية الأولية، بمثابة الواقفين فوق الأرض على سطح من علم الأدب والأخلاق.

وحين نقرأ موعظة الإنجيل نجد أنفسنا قد ارتفعنا عن سطح الأرض بمسافات بعيدة حيث يتفوق الإحسان على العدل، وحيث تزدري مملكة السماء دولة الأرض، ونرتقي قمة المجد ونبلغ الذرى باتباع مباديء القرآن الكريم، حيث يجتمع العدل مع الإحسان، ويبلغ البعد عن إتباع الهوى غايته، ونجعل هدفنا الخير المطلق وهو المولى تبارك وتعالى.

ويجب أن نضع في اعتبارنا تنفيذ إرادة الله عز وجل والسير حسب مشيئته، والتزام جانب الفضيلة في حياتنا.

---

(1) الآية (٣١) من سورة النور.

(2) الآية (٥٨) من سورة النور.

وقد سئل الرسول صلوات الله وسلامه على: ما الإحسان؟

فقال: أن تعبد الله كانك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

(رواه مسلم).

إضافات جديدة أضافها القرآن الكريم

لقد أضاف القرآن الكريم أموراً جديدة وأصيلة إلى ما سبق تنزيله في الكتب السماوية المتقدمة عليه، وهو عندما أنزل على الرسول صلوات الله وسلامه عليه جاء (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه[1])، ونستطيع أن نقول أن الهيمنة معناها أبعاد التأويل، والبعد عما نسب كذبا وزوا إلى الكتب السماوية السابقة من تفسيرات خاطئة، يقول الحق جل وعلا: (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون[2]. وقد وعد الله عز وجل بصون القرآن الكريم وحفظه من أي تحريف أو تبديل أو زيادة أو نقص، بقوله عز وجل: (أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون[3].

أما الكتب السماوية الأخرى فقد تركت لأناس يدونونها ويصونونها، يقول الحق تبارك وتعالى: (افتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون[4]؟)، و: (يأيها الرسول: لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا: آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، ومن الذين هادوا سماعون الكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك. يحرفون

---

(1) الآية (٤٨) من سورة المائدة.

(2) الآية (٦٤) من سورة النحل.

(3) الآية (٩) من سورة الحجر.

(4) الآية (٧٥) من سورة البقرة.

الكلم من بعد مواضعه. يقولون: أن أوتيتم هذا فخذوه، وأن لم تؤتوه فاحذروا[1]. وإلى جانب هدى القرآن الكريم المبدئي من ذكر الحقائق الدينية والأدبية توجد أهداف ثانوية الغرض منها تقوية الإيمان بالله سبحانه وتعالى، وتقوية الأمل عند المؤمنين بشكل قاطع.

ومن العجيب أن نجد أن تفسير عالم الطبيعة الذي خلقه المولى تبارك وتعالى ينطبق تمام الانطباق على أحدث ما توصل إليه العلماء والباحثون في نظام الكون، وعلم التشريح، وعلم وظائف الأعضاء وسائر العلوم الموضوعية الأخرى، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الآيات القرآنية الكريمة التي تشير إلى المسائل العلمية، فيتحدث القرآن الكريم عن كروية الأرض بقوله: (خلق السموات والأرض بالحق. يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى، ألا هو العزيز الغفار[2].

ولقد أثبت العلم الحديث كروية الأرض بشكل قاطع عن طريق الأقمار الصناعية، وسفن الفضاء التي دارت حول الأرض، مع أن القرآن الكريم قد قرر هذه الحقيقة منذ ألف وأربعمائة سنة.

ويقول القرآن الكريم عن تكوين المطر: (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله[3] ويقول: (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء إذا هم يستبشرون[4].

---

(1) الآية (٤٤) من سورة المائدة.

(2) الآية (٥) من سورة الزمر.

(3) الآية (٤٣) من سورة النور.

(4) الآية (٤٨) من سورة الروم.

ويخبر القرآن الكريم عن تلقيح الرياح بقوله: (وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين[1].

ويتحدث عن الأصل المائي للكائنات الحية فيقول: (وجعلنا من الماء كل شيء هي أفلا يؤمنون[2] ؟)، ويقول القرآن الكريم عن وجود زوجين من كل أنواع النباتات ومن المخلوقات الأخرى: (سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون[3]، ويقول: (ومن كل شيء خلقنا زوجين[4]، ولم تكن هذه الزوجية أو الثنائية في هذه الكائنات معروفة بين الناس وقت نزول القرآن الكريم.

ويذكر القرآن الكريم حياة التعاون بين الجماعات في الحيوانات والطيور بقوله: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ثم إلى ربهم يحشرون[5] وعن حياة النحل بقوله: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون[6].

ويذكر القرآن الكريم المراحل المتتالية لتكوين الجنين في بطن أمه، فيقول: (يأيها الناس: أن كنتم في ريب من البعث فأنا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً[7]، ويقول: (ولقد خلقنا الإنسان من

---

(1) الآية (٢٢) من سورة الحجر.

(2) الآية (٣٠) من سورة الأنبياء.

(3) الآية (٣٥) من سورة يس.

(4) الآية (٤٩) من سورة الذاريات.

(5) الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(6) الآية (٦٩) من سورة النحل.

(7) الآية (٥) من سورة الحج.

سلالة من طين، ثم جعلناها نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم انشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين[1].

والقرار المكين الذى ذكره القرآن الكريم هو الرحم، وفي وصفه بأنه مكين إعجاز يفهمه ويدركه الأطباء والدارسون لعلم التشريح، فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن تمكيناً تاماً لجرثومة اللقاح، وقد زوده المولى تبارك وتعالى بمخابيء عجيبة خلقت لذلك خلقاً، وهو يفرز مواد تقي الجرثومة، وتحفظ عليها الحياة وتدافع عنها، ونجد ذلك كله في تفسير كلمة (مكين).

وفي قوله عز وجل: (ثم أنشأناه خلقا آخر) اعجاز دقيق للقرآن الكريم، فقد ثبت علمياً أن الجنين في بداية تخلقه وتكوينه يكون على هيئة واحدة في الإنسان والحيوان، ثم يتحول جنين الإنسان إلى الصورة البشرية عن طريق الإنشاء والخلق الآخر.

أن ما اكتشف العلم الحديث من الحقائق عن أطوار الجنين هو عين ما ذكره القرآن الكريم في هذا الشأن. وهناك إعجاز علمي للقرآن الكريم، فقد ذكر أن للجنين ثلاثة أغشية سماها (ظلمات)، وهي ما يعرف الآن بالغشاء (المنباري)، والغشاء (الخوريوني)، والغشاء (اللفائفي)، ونجد الإشارة إلى هذه الأغشية في قوله عز وجل: (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ذلكم الله ربكم له الملك[2]، ولا تظهر هذه الأغشية إلا بالتشريح الدقيق، أما إذا نظرنا إليها بالعين المجردة فإنه يخيل إلينا أنها غشاء واحد.

([1]) الآيات (١٢، ١٣، ١٤) من سورة المؤمنون.

([2]) الآية (٦) من سورة الزمر.

ولقد نص القرآن الكريم على أن الله تبارك وتعالى أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم، بقوله عز وجل: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟[1]. ومن المعروف أن الخصية موجودة في الجزء الأسفل من الإنسان وليست في الظهر، ولكن القرآن الكريم حين يتحدث عن خلق الإنسان ونشأته وذريته فإنما يتحدث عن (علم الأجنة)، ويذكر الجزء المخصص لنطفة في جسم الجنين، وهو أسفل الكليتين تماماً في الظهر، ومن هذا المكان يكون نمو الأعضاء المكونة للخصيتين، تظل تحت الكليتين في الظهر إلى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه، ثم تنحدر إلى أسفل، وتكون في مكانها الطبيعي المعروف عند الولادة، ففي الآية الكريمة إشارة إلى النقطة الأصلية التي تؤخذ منها النطفة، وهي الظهر من غير شك، ولم يتقدم علم التشريح في (الأجنة) إلا في مائة السنة الأخيرة، مما يثبت أن هذه الآية الكريمة معجزة من معجزات القرآن الكريم.

وهذه الآيات الكريمة من سورة الدخان تتنبأ بما سوف تجتازه الدعوة الإسلامية من أدوار، وبما سيكون عليه موقف أعدائها، وما ستلاقبه على أيديهم، وتذكر أنهم في باديء الأمر سيكونون غير مبالين ولا مكترثين بالدعوة، ثم تتفتح عيونهم، ويظهر اهتمامهم ثم يعلنون معارضتهم لها وعداوتهم، كما ذكرت الآيات الكريمة ما سوف يحل بهم في (مكة) من شقاء يصيب الناس بذهول لدرجة أنهم لا يصدقون ما يرون، ثم يبتهلون إلى الله العلي القدير بالدعاء لا ذهاب هذا الشقاء عنهم، ورفع الضرر الذي لحق بهم، ثم يحدث ازدهار وكشف للبلاء فينسون ربهم، ثم تحل بهم الهزيمة الساحقة في أول معركة حربية بينم وبين المسلمين، يقول تبارك وتعالى: (بل هم في شك يلعبون، فارتقب

([1]) الآية (١٧٢) من سورة الأعراف.

يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشي الناس هذا عذاب أليم، ربنا: اكشف عنا العذاب، أنا مؤمنون. أني لهم الذكرى، وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه، وقالوا: معلم مجنون. أنا كاشفوا العذاب قليلاً، أنكم عائدون، يوم نبطش البطشة الكبرى أنا منتقمون[1].

وتتنبأ آيات أخرى بأن الإسلام سينتصر، وستعلو رأيته، وسوف يسود أصحابه ويعجز خصومهم عن مقاومتهم، ولن تستطيع أية قوة على ظهر الأرض مهما بلغت ومهما أوتيت من أبادة الإسلام، يقول الحق جل وعلا: (أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح[2]، و: (أن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون[3]، و: (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون[4].

وأخبر القرآن الكريم بأن بني إسرائيل سيضطهدون ويشتتون إلى يوم القيامة، يقول جل شأنه: (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، أن ربك لسريع العقاب، وأنه لغفور رحيم، وقطعناهم في الأرض أمما، منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون[5]: وبأنهم سيظلون على مدى الدهر محتاجين إلى حليف يحميهم، يقول جل وعلا: (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من

---

(1) الآيات (٩ إلى ١٦) من سورة الدخان.

(2) الآية (١٩) من سورة الأنفال.

(3) الآية (٣٦) من سورة الأنفال.

(4) الآية (٥٥) من سورة النور.

(5) الآيتان (١٦٧، ١٦٨) من سورة الأعراف.

الناس[1].

وإلى جانب تحقق نبوءات القرآن الكريم فإن أحداً لا يستطيع أن يثبت تناقضاً في هذه النبوءات في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل، لأنه: (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[2]، ولا يقدر أحد على أن يقدم ضمانات ضد الزمن أو القضاء إلا الله عز وجل، رب الزمن ورب القضاء.

فمن هذه النقاط التى تعرضنا لها يتبين أن القرآن الكريم وحي من عند الله وليس من صنع البشر، لأنه لا يوجد فيه انعكاس لأخلاق الرسول صلوات الله وسلامه عليه الشخصية، ولا أثر فيه للتعبير عن أفراحه وأحزانه الدنيوية في حياته اليومية، ولا يوجد فيه تلميح لخصائص فرد أو قبيلة أو عنصر، أو خصائص جوية أو جغرافية فيما عالجه من الموضوعات، ولا يوجد فيه إلا ما هو لازم لهداية الإنسانية وتهذيبها وتثقيفها، وآياته مصحوبة بعلامات مرئية تدل على أنه وحي من عند الله عز وجل، وهذا فضلاً عن أسلوبه وتركيبه اللذين يعتبران من أكبر الأدلة على أنه من وحي السماء، وكذلك مبادئه وتعاليمه الدينية والأدبية، كل ذلك فيه الدليل خير الدليل على أنه كتاب الله عز وجل، ولا يوجد أدنى احتمال على أنه مقتبس من كتب أخرى. ولذلك كان للقرآن الكريم في قلوب المسلمين المنزلة العليا، وليس مجرد كتاب شعائر وعباده روحية فقط، بل هو القانون الأساس، ومنبع العلم والمعرفة، ومرآة كل العصور، وسلوى الحاضر، وأمل المستقبل.

والقرآن الكريم فيما أوجب أو حرم مثل أعلى لمن يريد الاستقامة وينشد

---

(1) الآية (١١٢) من سورة آل عمران.

(2) الآية (٤٢) من سورة فصلت.

السلوك القويم، وهو منصف دائماً في حكمه، وهو قسطاس العدل وميزان الحق فيما يثبته أو ينفيه، ونجد في مباحثه الحجة الباهرة والبرهان، وهو أعظم الكلام وأجمله تعبيراً فيما يقوله، وهو أعظم ما يثير الحماس في النفوس ويشيع فيها الطمأنينة.

والقرآن الكريم هو أعظم مرجع للناس جميعاً، لأنه يعبر بطريق مباشر عن مشيئة الله تبارك وتعالى وإرادته، ونحن مكلفون بطاعة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأولي الأمر منا ما دامت طاعتهم تتفق مع أوامر الله عز وجل ولا تتعارض معها. ولننظر إلى موقف رسول الله ﷺ من آيات القرآن الكريم، أن يده الشريفة لم تكن تمتد إليها بأي تبديل أو تعديل ولو كان طفيفاً، وكان يفسرها تفسيراً دقيقاً كما هو حال كل من يشرح كلاما ليس من عنده.

وحينما كان يؤجل تنفيذ أحد الأوامر الألهية ولو لفترة وجيزة، بقصد تهدئة نفوس المؤمنين، أو قطع الطريق أمام أعدائه كان الوحي ينزل عليه معاتباً أياه على ذلك، وما كان عليه أفضل الصلاة والسلام يتقبل هذا العتاب إلا بالرضا والتسليم، ويبقى عليه في نص الآية إلى الأبد، يقول عز وجل، (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه: أمسك عليك زوجك واتق الله. وتخفي في نفسك ما الله مبديه، وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنون حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهن وطراً، وكان أمر الله مفعولاً[1].

وأخرج البخارى عن أنس رضى الله عنه أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال: (لما انقضت عدة

---

(1) الآية (٣٧) من سورة الأحزاب.

زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فأذكرها على. فانطلق فأخبرها. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أمر ربي. فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله فدخل عليها بغير إذن)، وكان زيد بن حارثة من سبي الجاهلية، اشتراه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وتبناه.

وهذا التسليم لأوامر القرآن الكريم، والانقياد للمولى تبارك وتعالى قد سجله القرآن الكريم بقوله: (قل: أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[1].

(1) الآيتان (١٦٣، ١٦٤) من سورة الأنعام.

المعرفة في ظل الاسلام

د.عبد الحكيم المغربي

في ظلال المعرفة

إن المعرفة هي أساس تقدم الانسانية فالمعرفة هي الوسيلة الاساسية لرقي المجتمع، وقد اتسعت المعرفة بتقدم الانسانية وإنها اليوم لتشمل ما وصل اليه العلم. والعقل البشري استطاع بما اكتسب من خبرة ومران أن يصنف المعارف الانسانية وأن يحكم ما بينها من وشائج وأن يوضح ما يربطها من صلات وأن يستنبط القوانين من المشاهدات والتجارب.

ويرى بعض المؤرخين من أوروبا أن العصور العلمية تنقسم الى عصرين رئيسيين:

العصر الاول: العصر الاغريقي ويمتد من سنة ستمائة قبل الميلاد الى سنة مائتين من الميلاد.

والعصر الثاني: عصر النهضة الحديثة التي تبدأ من سنة ألف وأربعمائة وخمسين ميلادية.

والذي لا شك فيه أن هؤلاء المؤرخين مدفوعين بدوافع التعصب الممقوت والانانية البغيضة.

إذ أغفلوا ما قبل عصر الاغريق من مصريين وآشوريين وبابليين كما أغفلوا

العصر الاسلامي الزاهر فالعلم الاغريقي لم يبدأ من العدم بل سبقته معارف، استطاع الاغريق بما توفر لهم، ان ينهاوا منها في مسيرتهم.

أما العصر الاسلامي فيعد من أزهى عصور المعرفة في تاريخ الانسانية وذلك أن الاسلام قد رفع من شأن المعرفة وقدر العلم والعلماء، وأول آية نزل بها جبريل – عليه السلام – على مُحَمَّد رسول الله – عليه الصلاة والسلام – هي:" اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالعلم/ علم الانسان ما لم يعلم".

وايمانا من المسلمين بأن المعرفة حلقات متصل بعضها ببعض ومؤثر بعضها في بعض، عكفوا على ثمرات عقول القدماء من فلاسفة الاغريق والرومان يدرسونها ويأخذون عنها، ويؤصلون قواعدها وينقبون عن أسرارها ما هداهم اليه البحث والنظر والاستدلال واتبعوا في الوصول الى الحقائق العلمية خطوات منهجية من شأنها التأصيل والتطويع وهذه الخطوات تتركز في:

أولاً : التحرر من قيود العرف والتخلص من قيود التقاليد وبهذا تزال الانقاض قبل أن يوضع حجر الاساس ويرفع البناء ولهذا تمكن المسلمون في ظل التعاليم في ظل التعاليم القرآنية من أن يقيموا أسس المعرفة على دعائم قوية تعتمد اصولاً وقواعد ثابتة.

ثانياً : التأمل والمشاهدة وجع المعلومات الحسية والمادية تمهيداً للدرس والبحث.

ثالثاً : الموازنة والاستقراء واذا كانت مرحلة التأمل تعتمد على المشاهدات الحسية فان هذه المرحلة تضم اليها خطوات التفكير العقلي.

رابعاً : الحكم المبني على الدليل والبرهان الصادق.

وقد استقرت دعائم الخطوات المنهجية في أعماق النفوس فكانت الرائد الامين للعقول والافكار

وقد طبع المسلمون على حرية الفكر واستقلال الارادة , ولهذا كانت لهم حضارة عالمية لن ينسى التاريخ دورها في تحويل هجري الانسانية ولن تنسى الانسانية دور المسلمين في بناء الحضارة بأصالة وعمق. والامة الاسلامية في أشد الحاجة الى أن تزداد معرفة بما لها من معارف وفي اشد الحاجة الى دراسة تاريخها لتثبت على الايمان بالله فلا تضل في المتاهات الفلسفية التي يراد بها محاربة المسلمين.

و**المعرفة** : ادراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره.و هي أخص من العلم ويقال : فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله , متعدياً الى مفعول واحد وعرفه يعرفه معرفة وعرفانا فهو عارف.

والعلم والمعرفة يفرق بينهما من جهة اللفظ ومن جهة المعنى.

أما من جهة اللفظ : ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد تقول: عرفت الديار.

قال الله تعالى: " فعرفهم وهم له منكرون" [1] وقال تعالى: " يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " [2]

وفعل العلم يفتضى مفعولين كقوله تعالى: " فان علمتوهن مؤمنات ".[3]

اذا وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى: " وآخرين من

---

[1] سورة يوسف أية رقم ٥٨

[2] سورة البقرة أية ١٤٦ والانعام اية ٢٠

[3] سورة الممتحنة آية رقم ١٠

دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ".[٤]

و أما من جهة المعنى فمن علامات وجودها خمسة صور:

أحدها : أن المعرفة تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحوال الشيء فتقول : عرفت أباك وعلمته صالحا ولذلك جاء الأمر في القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى: " فاعلم أنه لا اله الا الله ".[٥] وقوله تعالى: "فاعلمو انما أنزل بعلم الله ".[٦]

فالمعرفة تصور صورة الشيء والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته ونسبتها اليه.فالمعرفة نسبة التصور والعلم نسبة التصديق.

ثانيها :أن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد ادراكه , فاذا أدركه قيل عرفه.

أو تكون لما وصف له بصفات قامت في نفسه , فاذا رآه وعلم أنه الموصوف بها قيل : عرفه.

قال الله تعالى: " وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون".[٧]

فالمعرفة نسبة الذكر في النفس , وهو حضور ما كان غائبا عن الذاكر ولهذا كان ضدها الانكار وضد العلم الجهل قال الله تعالى : " يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها".[٨]

---

[٤] سورة الانفال آية رقم ٦٠

[٥] سورة محمد اية رقم ١٩.

[٦] سوة هود آية رقم ١٤

[٨]سورة النحل آية رقم ٨٣

و يقال : عرف الحق فأقر به وعرفه فأنكره.

ثالثها : أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره.

رابعها :أنك اذا قلت : علمت مُحَمَّدا لم تفد المخاطب شيئا لانه ينتظر أن تخبره على أي حال علمته فاذا قلت : كريما أو شجاعا حصلت له الفائدة واذا قلت: عرفت مُحَمَّدا استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره ولم يبق أن ينتظر شيئا آخر.

خامسها : ان المعرفة علم يعين الشيء ويفصله عما سواه فأنه قد يتعلق بالشيء مجملا.

والفرق بين العلم والمعرفة عند المحقيين : أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالم بموجه ومقتضاه , فلا يطلق المحققون المعرفة على مدلول العلم وحده.

ولكن اذا كانت المعرفة لها كل هذا فهل هي فطرية أم مكتسبة أم مزيج بينهما؟

في هذا تحصل للدارسين ثلاثة اراء ولكل رأي من الادلة والبراهين مما ينهض مدعما أصالته.

أولاً: يقرر كثير من رجال الفكر الفلسفي : أن المعرفة الانسانية جميعها مكتسبة, وأن طريق اكتسابها الحواس.

ويرى الفلاسفة : أننا ندرك الأشياء عن طريق الحواس فالشخص الذي يولد أصم لا يمكن أن يعرف الاصوات وهي موضوع السمع وكذلك الشخص الذي يولد أعمى أن يعرف الألوان , فنحن ندرك الأشياء الخارجية عن طريق الحواس

: البصر أو السمع أو اللمس أو الشم.

و بمعنى آخر : أن الأجسام الخارجية هي مجموعة من الاحساسات.

أو بمعنى ثالث نحن لا ندرك الأشياء الخارجية وإنما ندرك أنفسنا، فأننا لا يمكن أن نعرف الشيء الخارجي كهذا الكتاب الا عن طريق هذه النوافذ التي يطل منها على العالم الخارجي.

وعن طريق هذه الاحساسات التي تتجمع وتنتظم بعد نفاذها من هذه النوافذ (الحواس) نعرف الأشياء فأنا لا أعرف الكتاب وانما أعرف الاحساسات الموجودة في عقلي عن هذا الكتاب.

معنى ذلك : ان هناك عقلا يتلقى هذه الاحساسات وأن العقل كالصفحة البيضاء يتلقى الاحساسات فتكون المعرفة.

ثانياً : ان المعرفة فطرية بمعنى أن الانسان يولد ونفسه عالمة بكل شيء لأن النفس قبل اتصالها بالبدن كانت تعيش في عالم المثل فاطلعت على كل شيء وعرفت كل شيء ولما اتصلت بالجسد نسيت فاذ عرفت الناس شيئا أو أدرك الانسان شيئا فانه لا يدرك شيئا جديدا ولا يكتسب معرفة جديدة ولكنه يتذكر ما كان يعرفه في عالم المثل.و هذا تفسير قول افلاطون : (العلم تذكر والجهل نسيان) ولعل بعض المذاهب في التصرف تنحو هذا النحو وتزعم امكان المعرفة بغير الحواس.[1]

ثالثاً : يذهب آخرون الى أن العقل البشري بطبيعته يحتوي على جزء من المعرفة الفطرية يضاف اليها جزء آخر مكتسب واختلف العلماء في هذا الجزء الفكري فقال بعضهم : ان المعرفة البديهية هي المعرفة الفطرية مثل : الكل

[1] معاني الفلسفة للدكتور احمد فؤاد الاهواني ص ٨٨ الطبية الاولى القاهرة.

اعظم من الجزء.

ويذهب (كانت) الى أن العقل البشري حين يكتسب المعرفة المحسوسة للأشياء الخارجية يضيف اليه شيئا من جوهره وطبيعته ويصوغ المعرفة للمحسوسات الخارجية في القالبين :

القالب الأول : المكان والقالب الثاني : الزمان.

وكأن (كانت) يريد أن يقول : أن المكان والزمان لا يتعلقان بالأشياء الخارجية فحسب.

بل هما انسانيان فمن طبيعة العقل وجود هاتين الصورتين وبخاصة صورة المكان وصورة الزمان اللتان لا نستطيع أن ندرك الأشياء المحسوسة الا داخلة فيهما.

ويرى علماء الطبيعة وخصوصا الذين يأخذون بنظرية (اينشتين) في تفسير الكون يتضمن أن المعرفة الموجودة في عقولنا لا تنفصل عن جملة الحضار ة أو الثقافة السائدة في العصر الذي يعيش فيه صاحب المعرفة ونرى أن الباحثين قد أجمعوا على أن الثقافي البشرية سلسلة متماسكة الحلقات تؤثر سوابقها في لواحقهما على صورة قد تكون واضحة وقد تكون غامضة.

وجوهر المعرفة موجود وجودا محققا ولكن نعت المعرفة من : قلة أو كثرة أو نسبية أو اطلاق وفطرية أو اكتسابية. هو الذي اختلف فيه الفلاسفة منذ أقدم عصور الفلسفة الانسانية.

فهي تارة: نسبية وأخرى: مطلقة وثالثة: فطرية ورابعة: مكتسبة كلها ترتكن على التجارب.

وكذلك تعيين القوة العارفة وتحديد مدى اختصاصها فمرة هي الحواس وحدها كما عند هيراطقس واخرى هي الحواس مع العقل كما يرى ارسطو وثالثة هي البصيرة كما يرى افلاطون، ورابعة هي العقل وحده كما يرى ديكارت.

ويعنينا هنا أن نعرف أن المعارف الانسانية تنقسم الى قسمين :

أولهما: المعارف العامية وهي مجموعة المشاعر والاحساسات المادية المتحصلة للانسان بواسطة بعض أجزاء بدنه وهي تمتاز بأنها بسيطة ساذجة خالية من الدقة والتعمق ويصفها هيراطقيس بأنها : أشبه بماء يسيل يمين شطئان غير محدودة سيرا غير محدود المصير.

ونحن مدينون بهذه المعارف للحواس التي نستعين في توصيلها الينا بالزمان والمكان.

ولكن ليس هذا هو كل شيء بل ان الحواس تعاني في نقل تلك المعرف عمليتين لابد منهما:

أولهما : ارتسام تلك الأشياء المادية المراد نقلها.

وثانيهما : نقل تلك الروسوم الى مكانها الطبيعي من النفس البشرية. فالمعرفة العامية لها بالضرورة درجتان :

الأولى : المعرفة الاحساسية البحتة وهي لا علاقة بذكريات الماضي ولا بأخبار المستقبل.

والدرجة الثانية : هي ما تشترك النفس في عمليته وهو منظم ثابت يتناول ماضي الحياة وحاضرها ومستقبلها.

ثانيهما : المعرفة العلمية وهي التي يعول عليها في الحياة الانسانية ويعتمد عليها الانسان في الوصول الى ما قدر له.

وأظهر الفروق بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية هي :

أولاً : أن المعرفة العامية مقصورة على النواحي المادية والاجتماعية من الحياة , بينما المعرفة تتناول فوق هذا كشف أسرار الكون وخفايا الوجود.

ثانياً : أن المعرفة العامية موجودة لدى جميع أفراد بني الانسان على حين أن المعرفة الفلسفية العملية مقصورة على أفراد صفوة البشرية.

ثالثاً : أن المعرفة العامية فطرية توجد لدى كل من توفر فيه القدر المحقق للانسانية من العقل ولكن المعرفة الفلسفية مكتسبة بالمران والتطبيق الدقيق ونتيجة لمجهود عظيم وصبر طويل.

رابعاً : أن المعرفة العامية معرضة للتأثر بالغريزة أو بالعاطفة في حين أن المعرفة الفلسفية خليقة بأن تكون بمنجاة من أثر هذين الباعثين.[1]

فالمعرفة تشمل محيطات واسعة تبدأ بالمعرفة العامية التي يشترك فيها جميع أفراد النوع البشري ثم تستمر الى درجة التجارب الحسية على أيدي الطبيعين أو الكيمائين ثم تستمر في صعودها الى درجة النظر العقلي عند الرياضيين والفلاسفة لكي تنتهي عند مرتبة التجارب التنسكية.

ومن هذا يتبين أنها تتطلب جهودا ضخمة للاحاطة الشاملة التي تصمن القدرة على منح كل غصن من أغصان دوحتها المترامية : الأطراف : الطابع الذي يميزه عن غيره.

---

[1] المعرفة عند مفكري المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ٢١ , ٢٢ الطبية الدار المصرية للنشر.

والباحث والدارس للمعرفة الاسلامية وعظمتها وسموها وشولها الا بدراسة المعرفة في أكثر النظريات والمذاهب الفلسفية ولهذا ستشير الى أكثر النظريات والآراء الفلسفية مع طرح المذاهب المتطرفة التي ابتدعها المتخرفون.

المعرفة والفلسفة

الآراء والنظريات الفلسفية في المعرفة كثيرة وسوف نكتفي بمذاهب تتمتع بالسيادة والشهرة وتعتمد على أدلة فوق مالها من رجال ومؤيدين.

- **المذهب التجريبي** : يقول رجاله ان المعارف مهما بلغت من التجريد والاستقلال عن الأمور الحسية فلا يمكن أن تتركز في الفطرة بل يكتسبها الانسان عن طريق الملاحظة والتجربة، ويفسر التجريبيون وعلى رأسهم جون ستورات مل نشاة العلوم الرياضية بأن الانسان قد اتجه منذ القدم الى الظواهر الحسية فقاس الأبعاد والسطوح والأشكال واستخدم بعض الوسائل الحسية كالأصابع والحصى في التعبير عن الأعداد ثم استطاع آخر الأمر أن يجرد المعاني الرياضية من ملابساتها الحسية فاهتدى إلى الخط المستقيم والخطوط المتوازية والأشكال الهندسية.

وطريق المعرفة في المذهب التجريبي هو: الخبرة الحسية واذا أغلقت الحواس أبوابها انعدمت المعرفة فلن تنشأ في العقل أفكار إلا اذا سبقتها مؤثرات حسية، والفكرة التي لا يمكن ردها أو رد عناصرها الى أصولها الأولى من انطباعات حسية هي فكرة باطلة.

- **المذهب العقلي** : رجال هذا المذهب وعلى رأسهم ديكارت، يرون أن العقل وحده هو طريق الوصول إلى المعارف، وليس الإنسان في نظرهم بحاجة الى أن يرجع الى الطبيعة لكي توحي اليه بفكرة : (الكم المتصل) أو (الكم

المنفصل) أو ترشده الى التعاريف الرياضية فهذه المعاني توجد في العقل بصفة فطرية وليست مكتسبة بالتجربة. والأمور الظاهرية هي عوامل ثانوية تحفز العقل على الابتكار والابداع والايجاد.

و طريق المعرفة في المذهب العقلي لا يرتكز على الحواس وحدها لأنها تخطيء وتصيب ولهذا لا تصلح أساسا للمعرفة، وأساس المعرفة هو العقل الذي يدركه صاحبه ادراكا مباشرا فهو الذي يشك ويفهم ويدرك ويريد ويشعر ، والمذهب العقلي لا يرفض ما تجيء به الحواس ولكنه لا يقطع في الأخذ بها.

– **المذهب النقدي**: ويطلق الباحثون على رجال هذا المذهب (الموقفين) ويرى أصحاب هذا المذهب أنه لا تعارض بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي بل انه من الممكن الجمع بينهما وأن كلا من العقليين والتجريبين قد أدرك أحد وجهي الحقيقة وغفل عن وجهها الآخر فتعصب لرأيه وغلا في الانتصار له.

والحقيقة إنما تتم بالعقل والتجربة فكلاهما متمم للآخر.

فليست المعاني فطرية في النفس كما يزعم العقليون، وليس العقل وحده كافيا في كشف المعارف، كما أن الملاحظات والتجارب لا يمكن أن تكون هي المنبع الوحيد للمعرفة، فالمذهب النقدي يجمع بين المذهب التجريبي والمذهب العقلي وقد أسس كانت هذا المذهب مقررا أن المعرفة لا تتم الا بالخبرة الحسية والمباديء العقلية معا. ولاشك عنده في أن جانبا منها يأتي من الخارج وهو جانب الخبرة الحسية التي تتثبت من الأشياء ولكنها حينما يتلقاها العقل في إطاره ينظمها في حدوده ومن ثم يكون كل جزء من المعرفة معتمدا في مضمونه على خبرة الحواس، وفي قالبه على فطرة العقل في طريقة الادراك، وهكذا يكون كل جزء من المعرفة حسيا وعقليا في آن واحد معا.

– **المذهب الصوفي**: اذا كانت وسيلة المعرفة عند التجريبين هي الحواس ووسيلتها عند العقليين هي العقل ووسيلتها عند النقديين هي الحواس والعقل معا فإن وسيلة المعرفة عند الصوفيين والتنسكيين تختلف عن المذاهب السابقة لأن هؤلاء يرون أن العلم اليقيني يجيء عن طريق الحدس.

و الحدس هو الادراك العقلي المباشر الذي يدرك به العقل الحقائق ادراكا وتذعن له النفس اذعانا وتوقن به ايقانا لا سبيل الى دفعه.

فالحدس اذن كشف عقلي بلغ من الظهور والوضوح أن زال معه كل شك وبلغ من السرعة والبساطة أن يتم دفعه لا على التعاقب ويسمى الحدس عند التنسكيين بالذوق الصوفي أو الكشف أو العيان أو الوجدان فاعتماد الصوفيين ينهض على صفاء القلب ومجاهدة النفس حتى تصل الى مرتبه من الصفاء تتصل فيها بالقوة اللانهائية المسيطرة على الأكوان اتصالا يتيح لها من المعارف ما لا تصل اليه الحواس والعقول معا.

– **المذهب العملي أو البراجماتزم** وفلسفة البراجماتزم تُقدم العمل ثم تستخلص منه المعرفة.

ومن هنا أجاز جميع الظواهر، والمعرفة في حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع كما هو بل هي أداة السلوك العملي الذي يأتي بالنفع ُتلك أهم مذاهب المعرفة التي اهتدى اليها علماء وفلاسفة الغرب المعاصرون وبعض الصوفيين والتنسكيين وقد تفرعت عن هذه المذاهب نظريات فكرية عديدة وراح كل فريق يغالي في التشييع لمذهبه حتى أصبح لا يرى الحقيقة إلا فيه.

وكل النظريات والآراء التي ذهب اليها التجريبيون والعقليون والنقديون والمتنسكون والعمليون هي من وضع أناس فكروا وبحثوا وأصلوا وقعدوا فوصلوا

الى ما هداهم اليه البحث والفكر أما الاسلام فغير هذا كله : لأنه من عند الله الذي خلق الانسان وعلمه البيان وما كان من عند الله كان أتم وأكمل.

والباحث يرى أن الاسلام وثب بالمسلمين وثبين هائلتين:

الأولى : كانت على أثر اشعاع القرآن الكريم في جنبات الدنيا فأنارها بعد ظلمة وهدى الانسانية بعد حيرة وأزال الاصفاد والقيود التي كانت تقف حجر عثرة أمام الفكر ، ونبه على وجوب النظر في الكون العام وفي النفس الانسانية وفي الأسباب والمسببات فكان بهذا مصباحا أنار الدنيا وأشرق بالمعرفة الصحيحة.

الثانية :كانت عد نقل الحكمة والعلوم الى اللغة العربية وبهذا تفتحت العقول الى ألوان مختلفة من الثقافات والمعارف والباحث المنصف يرى أن الاسلام في وثبتيه قد وضع أسس المعرفة التي تهدي الانسان إلى الخير وتحيط بجميع الجوانب وتجعل منها كلا متكاملا غير قابل للتمزق والشتات وتقوم المعرفة في الاسلام على أساس مستودع التعادل بين الكم والكيف، وبين المادة والروح، وبين الغاية والسبب، وبين لدنيا والآخرة فلا افراط ولا تفريط، قال الله تعالى "ان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله"[1].

ولقد ربط الاسلام بين الحواس المرهفة وبين العقل الباحث المنظم أو الوجدان الملهم فالاسلام يدعو الى استعمال الحواس، قال الله تعالى: "أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنياناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد

---

[1] سورة الانعام آية رقم ١٥٣.

منيب". [٢] ،و قال تعالى : " أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ".[٣] وقال تعالى : " ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهر لآيات لأولي الالباب " [٤]. "

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تدعو الى التدبر والتبصر والتفكر والتأمل والنظر واستعمال الملكات العقلية والحواس وحدها قد لا تعني في أمور كثيرة. ولهذا تستعين بالبصيرة الملهمة والعقل الراجح النفاذ أما طريق الحدس الوجداني الذي يصل اليه الانسان بمجاهدة النفس وتقوى الله فقد أشار اليه القرآن الكريم في آيات كثيرة في قوله تعالى " يأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا " [٥] وفي قوله تعالى : " ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب " [٦].

فالاسلام الحنيف قد جمع المواهب والملكات سواء منها الحسية أو المعنوية، المنطقية أو الروحية، ليصل الانسان الى الكمال المنشود في ظلال تعاليم القرآن الكريم التي جاءت لترشد الانسان الى ما فيه السمو بالفكر والعقل.

الوصول إلى المعرفة في الاسلام

إن الناس ليسوا متماثلين في الفهم والتفكير وادراك حقائق الاشياء، فهناك فريق من الناس قد لا تهييء له حياته والظروف المحيطة به إلا شذرات من العلم والمعرفة، وثمة فريق آخر لن تعده وراثته إلا للسطحي من المعارف.

وكم من الناس من قصرته البيئة على القشور دون الحقائق، فنجد من

---

[٣] سورة الأعراف آية ١٨٥

[٤] سورة الانعام آية ١٩٠

[٥] سورة الانفال آية ٢٩

[٦] سورة الطلاق آية ٢

حصرته التربية في دائرة ضيقة من المرئيات وهناك من سجنته العقيدة في منطقة الأساطير والطلاسم والخرافات، ومن الناس من جرفه تيار عصره المادي الى الاقتناع بان الوجود الحقيقي لم يثبت الا للمادة وحدها ومن الناس من يرى أن القوة العارفة هي الحواس وحدها ومن الناس من يرى أن القوة العارفة هي الذهن المعتمد على الحاس والمحسوس، وفريق يعتمد في المعرفة على العقل المجرد الذي لا يهتم بالحس.

إن الاسلام الحنيف رسم للمعرفة طرقا تلتئم أحكم الالتئام مع مختلف المستويات الانسانية وتتسق أمتن الاتساق مع مختلف العقليات , ومتباين المواهب والملكات وتتطابق مع مراتب الانسانية ودرجاتها وتتجاوب مع حاجتها ورغباتها وأيا ما كان فان الاسلام قد سجل طرقا شتى لكشف الحقيقة وادراك المعرفة , ليتخذ كل فرد من بني الانسانية الطريق الذي يلتئم مع فكره ويتسق مع عقله." وكل ميسر لما خلق له ".

النظر والتأمل

النظر والتأمل في ملكوت السموات والأرض طريق من طرق المعرفة في الاسلام , ولهذا الطريق مرحلتان:

المرحلة الأولى : أرضية.

والمرحلة الثانية : أرضية وسماوية.

والمرحلة الأرضية أخفض المراحل وأشدها بدائية وألصقها بالأرض وهي تخاطب عامة الناس بما بين أيديهم من مرئيات ثم توجههم الى ما هو بعيد عنهم. قال تعالى : " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى

الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت "[1].

والمرحلة الأرضية والسماوية : استطاعت أن تظفر بحظ من تطور الانسانية وتقدمها العقلي والفكري. قال الله تعالى : " أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب " [1].

فالآية الكريمة " أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت" مليئة بالرحمة فائضة بالاشفاق على أولئك الناس ومن ثم فهي تتواضع فتنزل الى مستوى الناس الفكري وتجاربهم حتى يتمكنوا من المعرفة.أما الآية الكريمة : "أفلم ينظروا الى السماء فوقهم"، فتقيد أن فريقا من الناس قد ارتقى وصعد بعض الشيء وأصبح جديرا بالنظر الى السماء أولا ثم بالنظر فيها ثانيا ثم بمقياس ما لا يرى على ما يرى واستباط نتائج محققة سامية من مقدمات بسيطة ميسورة والاسلام لم يشأ أن يقفز بهؤلاء قفزة قد تكون فوق مستواهم العقلي لهذا وقف بهؤلاء هنيهة ريثما يعدهم للدرجة التي تليها وهي درجة النظر في ابداع السموات وسير الكواكب في أفلاكها.

وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالى: "ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون " [2].و قال تعالى : " ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي

---

[1] سورة الغاشية آية رقم ١٧

[1] سورة ق اية رقم ٦ , ٧

[2] سورة البقرة آية رقم ١٦٤

الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ... " [٣]. وقال تعالى : " أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وان عسى ان يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون " (٤.

الأسباب والمسببات

الأسباب والمسببات: طريق من طرق المعرفة في الاسلام , وهو طريق لفريق من البشر. لأن كثيرا من الناس لا يقنع الا بأفاعيل الأسباب في مسبباتها ولا يرضيه سوى التأمل في نشوء المسببات عن أسبابها وهذا الطريق يصل ما بين العقل والارادة والوجدان ويضع الخطوط لمثالية للسلوك وهذا الطريق أيضا يمكن الأسباب والمسببات من الصعود الى ما وراء الطبيعة ليصل الانسان الى معرفة الخالق وعظمته وعدله وحسابه وجزائه.

و هذا شيء من آيات السببية والمسببة الدالة على وجود المبدع أو الدالة على البعث وامكانه.

قال الله تعالى : " ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحييانا به بلدة ميتة كذلك الخروج " [١].

و قال تعالى: "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم اليل والنهار والشمس والقمر

---

[٣] سورة آل عمران رقم ١٩١

[١] سورة ق آية ١١

والنجوم مسخرات بأمره ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأكم في الارض مختلفا ألوانه ان في ذلك لآية لقوم يذكرون " [٢].

و عن طريق الأسباب والمسببات , وصل المفكرون الى أسرار الكون وخفايا الوجود ومعرفة خالق الكون.و هناك أدلة تشهد لهذا الطريق وتقوم على أساسه:

أحدها: سلك المتكلمين : وهو طريق الامكان وامتناع التسلسل الى مالا في جانب الماضي ويقول في ذلك ابن سينا : "لا شك أن هنا موجودا فهذا الموجود اذا نظرنا ليه في العقل بقطع النظر عن تحققه في الخارج فلا يخلو أما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود أو من غيره فلا يكون واجبا بالضرورة وهو مع ذلك غير ممتنع لأن الممتنع لا يوجد فبقى أنه ممكن أي أن وجوده وعدمه الا بمرجح وهذا المرجح اما أن يكون وجوده من ذاته فيكون واجب الوجود أو من غيره فيكون ممكن الوجود وحينئذ يعود الكلام فاما أن ننتهي الى مرجح واجب الوجود أو يتسلسل الأمر الى غير نهاية أو يدور والدور والتسلسل باطلان فلم يبق الا الانتهاء الى مرجخ واجب لوجود وهو الله تعالى"

ثانيها أدلة المتكلمين: وهو: أن العالم بجميع أجزائه من جواهر وأعراض حادث، وكل حادث لابد له من محدث.

اذن العالم لابد له من محدث وهو الله تعالى.و هذا الدليل في قوة قضيتين : القضية الأولى : كل جوهر حادث. والقضية الثانية : وكل عرض حادث[٣].

أما حدوث الجواهر فيستدل عليه : بأن كل جوهر لا يخلو عن الحوادث , وكل ما لايخلو عن الحوادث فهو حادث : اذن فكل جوهر حادث ... أما

---

[٢] سورة النحل آية ١٠ – ١٢

[٣]العرض : هو ما قام بغيره كاللون والطعم والرائحة والطول والتربيع والاستدارة.

الجوهر لا يخلو عن الحوادث , فلأنه لا يخلو عن الحركة أو السكون الحادثين وأما أن كل مالا يخلو عن الحوادث حادث. فلأنه لو فرض قديما والحال أنه لا يخلو عن الحوادث لزم أن يكون الحادث الحادث قديما. وهو تناقض ظاهر. وأما حدوث الأعراض فيستدل عليه : بأن من الأعراض ما شوهد وجوده بعد العدم كالضوء بعد الظلمه. كالحركة بعد السكون والعلم بعد الجهل وهذه الأعراض حادثة بالمشاهدة اذ لا معنى للحدوث عند المتكلمين الا الوجود بعد العدم.

ومن الأعراض مالم يشاهد حدوثه ولكن شوهد زواله بطرو ضده عليه، فيقال فيه : لو كان قديما لما جاز عدمه , لكن التالي باطل بالمشاهدة , فالمقد هو كونه قديما باطل أيضا , وبيان ذلك : أن ماثبت قدمه استحال عدمه لأن وجود القديم اذا كان من ذاته كان واجب الوجود , فيمتنع عدمه لان ما بالذات لا يتخلف عن الذات , وان كان من العلة الموجبة امتنع عدمه كذلك. ضرورة أن انعدام المعلول يكون بسبب انعدام علت التامة.

دليل الحكماء والمتكلمين

وسعد الدين التفتازاني يقول في شرح كتابه : (المقاصد) ملخصا دليلي الحكماء والمتكلمين:

" وطريق اثبات الواجب عند الحكماء , أنه لا شك في وجود موجود , فان كان واجبا فهو المرام وان كن ممكنا فلا بد له من علة يترجح وجوده على عدمه وينقل الكلام اليها فأما أن يلزم الدور أو التسلسل وهو محال أو ينتهي الى الواجب وهو المطلوب.

وعند المتكلمين أنه قد ثبت حدوث العالم , اذ لا شك في وجود حادث وكل حادث فللضرورة له محدث فأما أن يدور أو يتسلسل وهو محال وإما أن

ينتهي الى قديم لا يفتقر الى سبب أصلا. وهو المراد بالواجب.

وكلا الطريقين مبني على وجود الممكن أو الحادث بلا موجد وعلى استحالة الدور أو التسلسل "

ثالثها دليل عام للحكماء والمتكلمين: وتقريره : جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعيطيه الوجود.

اذن : جملة الممكنات محتاجة الى سبب يعيطها الوجود ثم ننظر بعد ذلك الى هذا السبب. فنرى اما أن يكون عين الجملة أو جزء الجملة أو خارجا عنها ولا يجوز أن يكون عين الجملة اذ يلزم عليه تقدم الشيء في الوجود على نفسه ضرورة وجوب تقديم العلة على المعلول وتقدم الشيء على نفسه محال بداهة.

ولا يجوز أن يكون السبب جزء تلك الجملة اذ يلزمه أن يكون الجزء علة لنفسه, ولما سبقه ان لم يكن هو الأول ولنفسه ان فرض الجزء الأول وهو محلل.

فوجب اذن: أن يكون سبب وجود جملة الممكنات شيء وراء تلك الممكنات وليس وراء جملة الممكنات شيء وراء تلك الممكنات وليس وراء جملة الممكنات الا المستحيل والواجب. والمستحيل فاقد الوجود فلا يعطيه لغيره فتعين أن يكون للمكنات الموجودة , موجد , هو واجب لوجود لذاته.

ومما يلاحظ : أن هذا الدليل يثبت المطلوب من غير أن يتوقف ذلك على بطلان الدور والتسلسل ويستحسن أن نبين استحالة الدور والتسلسل لتكون الفائدة أتم أكمل.

أ : الدور:

استحالة الدور بديهة لا يخالف فيها أحد لأن معناه : أن شيئا (ما) توقف

وجوده على وجود شيء آخر , وهذا الآخر قد توقف وجوده على ذلك الشيء الأول إما مباشرة أو بواسطة أو بوسائط وهذا يعني أن الشيء الأول متقدم من حيث هو متوقف عليه ومتأخر من حيث هو متوقف على غيره فيلزم اذن : توقف الشيء على وجود نفسه وهو بديهي البطلان.

ب : التسلسل

اتفقت كلمة المتكلمين والحكماء على أن التسلسل المحال هو ما كانت حلقاته قد تحققت قد تحققت في الوجود فلا استحاله في تسلسل الاعدام كما اذا قيل ان بقاء المعدوم على عدم متوقف على عدم علته، وعدم علته متوقف على عدم علتها الى غير نهاية فهذا تسلسل غير محال.

و قد اكتفى المتكلمون بهذا الشرط أما الحكماء فزادوا عليه شرطين آخرين هما :

١ – اجتماع حلقات السلسة غير المتناهية في الوجود.

٢– ترتيب الحلقات بحيث تكون كل حلقة علة لما بعدها , ومعلولة لما قبلاها الى غير بداية في جانب الماضي.

وبناء على ذلك يكون التسلسل باطلا عند الحكماء اذا كانت حلقاته قد وجدت كلها واجتمعت في الوجود وترتبت بحيث يتوقف فيها المتأخر على المتقدم.

رابعها قول المعتزلة:

الجاحظ من رجال المعتزلة قال في ذلك: ان قوما أنكروا الأسباب والمعاني وقصروا عن تأمل الصواب والحكمة في الخلقة وأنكروا خلق الأشياء وزعموا أن

كونها باهمال لا صنعة فيه ولا تقدير فكانوا بمنزلة عميان دخلوا دار قد بنيت أحسن بناء وفرشت أتقن فرش ولما كانوا لا يرون شيئا أنكروا جمالها وانسجامها وأول العبر والآيات بهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه فانك اذا تأملت العالم بفكرك وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع عتاده لسماء مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة كالبساط والنجوم منضودة كالمصابيح والجواهر مخزونة في معادنها كالذخائر وكل شيء منه شأنه وما يراد منه، والانسان كالمالك للبيت المخول لما فيه وضروب النبات مهيأة لمأربه وصنوف الحيوانات مصرفة في مصالحه ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتدبر وتقدير ونظام وأن الله خالق واحد هو الذي ألفه ونظمه , بعضه الى بعض[1].

وخامسها:

يقول الامام أبو الحسن الأشعري: الانسان اذا فكر في خلقته من أي شيء ابتدأ ؟و كيف دار في أطوار الخلقة طورا بعد طور حتى وصل الى كمال الخلقة؟ وعرف يقينا أنه بذاته لم يكن ليدبر خلقته ويبلغه من درجة الى درجة ويرقيه من نقص إلى كمال عرف بالضرورة أن له صانعا قادرا عالما إذ لا يتصور صدور هذه الافعال المحكمة من طبع لظهور آثار الأحكام والاتقان في الخلقة.

سادسها

يقول ابن رشد: فما هي الطريقة الشرعية التي نبه الكتاب العزيز عليها واعتمدتها الصحابة رضوان الله عليهم ؟

قلنا: الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل من بابها إذا استقريء الكتاب العزيز تنحصر في جنسين:

---

[1] الدلائل والاعتبار للجاحظ ص ٣ طبع حلب سنة ١٩٢٨ م.

أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالانسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذا دليل العناية، وثانيهما: ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والادراكات الحسية في العقل ولنسم هذا دليل الاختراع.

فأما الطريقة الأولى فتنبنى على أصلين:

احدهما : أن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الانسان.

والأصل الثاني : أن هذه الموافقة هي ضرورية من قبل فاعل قاصد لذلك مريد إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق.

فأما كونها موافقة لوجود الانسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الانسان وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له والمكان الذي هو فيه أيضا وهو الأرض وتظهر أيضا موافقة كثير من الحيوان له والنبات والجماد وبجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار وبالجملة: الأرض والماء والنار والهواء وكذلك تظهر العناية أيضاً في أعضاء البدن , وأعضاء الحيوان أعنى كونها موافقة لحياته ووجوده.

وبالجملة : فمعرفة ذلك –أعنى منافع الموجودات – داخلة في هذا الجنس، ولذلك وجب على من أراد أن يعرف الله تعالى، المعرفة التامة أن يفحص عن منافع الموجودات.

وأما دلالة الاختراع : فيدخل فيها وجود الحيوان كله , ووجود النبات, ووجود السموات, وهذه الطريقة تبنى على أصلين موجودين بالقوة في جميع فطر الناس.

أحدهما: أن هذه الموجودات مخترعة وهذا معروف بنفسه في الحيوان

والنبات كما قال تعالى : " ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له " فانا أجساما جمادية ثم تتحدث فيها الحياة فنعلم قطعا أن ههنا موجودا للحياة وهو الله تبارك وتعالى. وأما السموات فنعلم قطعا أن ههنا موجدا للحياة وهو الله تبارك وتعالى. وأما السموات فتعلم من قبل حركاتها التي لا تفتر أنها مأمورة بالعناية بما ههنا ومسخرة لنا والمسخر المأمور مخترع من قبل غيره ضرورة.

وأما الاصل الثاني: فهو أن كل مخترع , فله مخترع , فيصح من هذين الأصلين أن للموجود فاعلا مخترعا له وفي هذا الجنس دلائل كثيرة على عدد المخترعات. ولذلك كان واجبا على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الشياء ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات. ولأن من لم يعرف حقيقة الشيء لم يعرف حقيقة الاختراع.

والى هذا الاشارة بقوله تعالى: " أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ". وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في وجود – أعنى معرفة السبب الذي من أجله خلق والغاية المقصودة منه – كان وقوفه على دليل العناية أتم فهذان الدليلان هما دليلا الشرع.

الآيات الكونيية

وذلك أن الانسان إذا نظر إلى أى شيء من الكائنات وأدرك شيئا من خواصه ومزاياه والكيفية التي يكون عليها، لا يسع الا أن يعتقد أن له موجدا حكيما، منزها عن كل نقص.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

أولاً : في الانسان

قال الله تعالى: " وفي أنفسكم أفلا تبصرون" [1] فاذا تأمل المتأمل في الانسان وفي نشأته وفي تكوينه كفاه ذلك دليلا على أن له صانعا واجب الوجود حكيما في فعله وتدبيره.

وبيان ذلك : أن الانسان يتناول الطعام بفمه ويمضغه بأسنانه فيمتزج الطعام باللعاب ليساعد على هضمه ثم يندفع الى المعدة والأمعاء حيث يتم هضمه بواسطة العصارة المعدية المفرزة ثم تستخلص منه المواد المغذية وتنتقل الى أعضاء أخرى لتؤدي وظيفتها في تلك المواد فتتحول إلى دم وتحصل الدورة الدموية فينشط الانسان ويسعى في الأرض ليعمرها ويتزوج ثم ينجب فيتكاثر نوعه بسبب تحول جزء من الدم إلى نطفة محملة بحيوانات منوية تتحول "في قرار مكين" الى علقة ثم إلى مضغة ثم الى عظام وتكسى العظام لحما ثم ينشئه الله خلقا آخر " فتبارك الله أحسن الخالقين ".

كل ذلك وغيره في الانسان بل وفي الحيوان اذا تأمل فيه العقلاء أرشدهم الى أن وراء هذا الصنع البديع مدبرا حكيما.

ثانياً : في الكائنات الحية

لا شك أن الناظر فيها نظر تأمل وتفكر يجدها تشارك الانسان في بعض خواصه كالنمو والاغتذاء وقد وجدت في الاصل من ماء وطين وتباينت أنواعها وأشكالها وأحجامها فمنها الضخم كالفيل ومنها المتناهي في الصغر الذي لا يرى الا بالمجهر المكبر ومع ذلك ترى جميع الانواع تحمل الحياة ولها أعضاء تستلزمها حياتها مهما بلغت من الصغر والضآلة ولها الهام بطرق معاشها وميل

---

[1] سورة الذاريات آية ٢١

الى ما ينفعها وبعد عن ما يضرها. ولبعضها نظم عجيبة في تعاون أفراده في ادخار طعام الشتاء في الصيف كما يشاهد في النمل حيث تجتمع أفراده وتتعاون على حمل فتات الخبز وبعض المتخلف من الطعام. وكما تتعاون أحاد النحل في جمع الأزهار لقوتها وفي صنع أقراص الشمع التي يفرز عليها العسل الذي (فيه شفاء للناس) ثم في الحيوانات منافع جمة للانسان قال تعالى: " والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال تريحون وحين تسرحون " فاذا أضيف الى ماسبق من التأمل والنظر إلى ما في الحيوانات المختلفة من التركيب العجيب. في تكوين أعضائها وحواسها الظاهرة والباطنة ووظيفة كل عضو منها ودقة سمعها وانطوائها على المنافع الكثيرة والمصالح العديده المبنيه على الحكمة.

عندئذ يدرك الانسان أنها دلائل صدق على أنها صنع فاعل حكيم واجب الوجود.

يقول ابن القيم في المفتاح: "تأمل العبرة التي ذكرها الله تعالى في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المريء الخارج من بين الفرث والدم وكيف يدخل الطعام من أفواهها الى المعدة فينقلب بعضه دما باذن الله تعالى وبعضه يسري في عروقها وأعضائها فاذا ما أرسلته العروق في مجاريها الى جملة الأجزاء. حوله كل عضو الى طبيعته ثم يبقى الدم في خزائنه التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينقلب بعضه لبنا صافيا سائغا للشاربين يخرج من بين الفرث والدم، فسل المعطل الجاحد: من الذي دبر هذا التدبير؟ وقدر هذا التقدير؟ وأتقن هذا الصنع؟ ولطف هذا اللطف؟ سوى اللطيف الخبير[1].

[1] مفتاح دار السعادة لابن القيم ص ٢٧٠

وتأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر اليها والى اجتهادها في صنع العسل وبنائها البيوت الهندسية المسدسة التي هي أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعة فاذا انضم بعضها الى بعض لم يكن بينها فرجة، كل ذلك بغير مقياس ولا آلة وهذا من آثار صنع الله والهامه اياها كما قال تعالى " وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس ولهم في ذلك لآية لقوم يتفكرون[٢])"

فتأمل كمال طاعتها وحسن ائتمارها لربها حيث اتخذت بيوتها في هذه الأمكنة الثلاثة في الجبال وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون فلا يرى لنحل بيت غيري هذه البيوت. ومن عجيب أمرها أن لها رئيسا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا اياب إلا به فهي سامعة له مطيعة اياه يدبرها كما يدبر الملك مملكته حتى اذا آوت الى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة تزاحم الاخرى ولا تقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد أخرى بدون تزاحم ولا تصادم.

فسل من الذي أوحى اليها أمرها وجعل ما جعل في طباعها ومن الذي سهل لها سبله ذللا لا تستعصي عليها ولا تستوعرها ولا تضل عنها على بعدها؟ ومن الذي أنزل لها من الطل ما اذا جنته صار عسلا شهيا مختلفا ألوانه فيه شفاء للناس ؟ لا شك أنه الله العليم الحكيم) [٣].

---

[٢] سورة النحل اية رقم ٦٨ , ٦٩

[٣] مفتا دار السعادة لابن القيم ص ٢٦٧ , ٢٦٨

ثالثاً في النبات

النبات يتكون من وضع الحبة أو النواة في الأرض الرطبة وذلك أن الحبة أو النواة اذا وضعت في الأرض الرطبة ومضت مدة عليها ظهر في الحبة أو النواة من أعلاها شق ومن أسفلها شق،

فالشق الأعلى يخرج من جزء هو الشجرة الصالعدة الى الهواء والشق الأسفل يخرج منه جزء آخر هو الشجرة الهابطة في الأرض وهي المسماة بعروق الشجرة (الجذور)، واذا أمعن الانسان النظر قليلاً في ذلك التكون الذي حصل لظهرت له عجائب تحار في ادراكها العقول:

١ : ان الحبة اذا وقعت في الأرض الرطبة استولى عليها الماء والتراب فالنظر العقلي يقتضي أن الحبة تتعفن وتفسد.

٢ : ان الحبة اذا وقعت في الأرض الرطبة انتفخت وترتب على ذلك الانتفاخ عادة التفتح والانحلال من كل الجوانب ومع ذلك تراها لا تنشق الا من الأعلى والأسفل.

٣ : ان النوى مع ما فيه من الصلابة العظيمة التي بسببها يعجز عن فلقه أكثر الناس ينطلق اذا وقع في الرض الرطبة وانفلاقه يكون من ثغرة صغيرة على ظهر النواة فتصير النواة نصفين فيخرج من احداهما الجزء الصاعد ومن الآخر الجزء الهابط.

٤ : طبيعة تلك النواة واحدة وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد ومع هذا يخرج شجرتان: واحدة خفيفة صاعدة والأخرى هابطة مع اتحاد الطبيعة والهواء والماء والتربة.

٥ : ان باطن الارض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ومع هذا

غفاننا نشاهد أطراف تلك العروق في غاية الدقة واللطافة كأنها مياه منعقدة بحيث لو دعكها الانسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ثم انها مع غاية لطافتها تقوى على النفوذ في تلك الأرض الصلبة.

٦ : يتكون في تلك النواة أو الحبة شجرة فيها طبائع مختلفة قشرها له طبيعة خاصة وجرمها المستور بالقشر له طبيعة خاصة. ويصلح لما لا يصلح له القشر كذلك يقال في الاوراق والأزهار والثمار.

٧ : انك تجد أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب في الداخل والقشرة في الخارج مثل الموز وبعضها بالعكس مثل المشمش والخوخ كذلك تتباين أنواع النباتات مع اتحاد التربة وجميع لوازم النمو وهناك أنواع كثيرة من النباتات لا تحس بشيء فالتحقت بالجماد وهناك من النباتات ما يحس فالتحق بالحيوان كالسنط الحساس الذي تنضم وريقاته إذا أحس بحركة ما، وكالنوع المشتمل على عصارات تغري الذباب فيسقط عليها فاذا أحست به أنطبقت عليه ولا تتركه حتى تمتص رطوبته ثم تتركه ميتا لم يبق منه سوى القشر ويسمى آكل الحشرات.

هذه التباينات في الأنواع والأثمار مع اتحاد التربة والماء والهواء والتكوين على خلاف ما تقتضيه الطبيعة ويقضي به العقل دليل على أن الحاصل ليس حصوله اتفاقيابل هو بفعل فاعل حكيم قال الله تعالى: "وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل في ذلك لآيات لقوم يعقلون " [١].

[١] سورة الرعد آية ٤

رابعاً : في العالم العلوي

لو نظر الانسان نحو العالم العلوي لرأى أنه يشتمل على كثير من الكواكب والنجوم التي يقول عنها علماء أنها متباينة الأوصاف من جهات متعددة منها الصغير بالنسبة الى الكبير، ومنها القريب منا بالقياس الى ما هو بعيد جدا عنا، ومنها أنها تكون مجموعات منها المجموعة الشمسية وتتكون أفراد العائلة الشمسية المعروفة باسم الكواكب السيارة بحسب ترتيب بعدها عن الشمس من: عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ونبتون وبلوتو.

ويلاحظ أن أفراد المجموعة الشمسية أو الكواكب السيارة متباعدة عن بعضها بأبعاد شاسعة تقدر بمئات الآلآف من الأميال ومن هذه الأجرام السماوية ما هو مضيء حار كالشمس وما هو مكتسب نور من غيره كالقمر، ومع ذلك هي قائمة في الفضاء سائرة في مداراتها بغاية من الضبط والاحكام بحيث تضبط بها الأوقات ويعلم منها السنون وتتمايز بها الفصول بترتيب رتيب ونظام بديع تحار فيه العقول.

أضف الى ذلك ما يعود على الانسان والحيوان والنبات من فوائد ومنافع بسبب تلك الكواكب والمتأمل في ذلك وغيره يدرك أنها لا يمكن أن تكون من غير فاعل بل لابد أن تكون من صنع حكيم خبير عالم بالمطالع لا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في السماء. يقول ابن القيم: "وسل الجاريات من الكواكب والشمس والقمر من الذي خلقها وأحسن خلقها ورفع مكانها وزين بها قبه العالم وفاوت بين أشكالها ومقاديرها والوانها وحركاتها وأماكنها من السماء فمنها الكبير ومنها الصغير ومنها ما لا يزال ظاهرا لا يغيب بحال فهو أبدى الوجود ومنها أبدى الخفاء ومنها ماله حالتان ظهور واختفاء.. وأنت اذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ وتدل على وجود

الخالق وصفات كماله وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة[٢]. والانسان المؤمن بآيات الله لا يستطيع أن يقول عن طريق المعرفة الفلسفية ان الله هو سبب أو علة هذا الوجود وخالقه ومصوره وواضع اسسه ونظمه فحسب.

بل يقول أيضا: ان الله هو الذي يشهد على الشياء كلها وليست الشياء هي الدليل عليه.

وبعبارة أخرى فان فكرة الألوهية هي التي تفسر هذا الكون وتعطيه معنى ومغزى لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي وضع قصة السموات والأرض وأخبر عن نهايتها لتستوعب مغزاها.

ان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعطي الأشياء معناها وهو الذي سيتم قصة الكون بحياة في عالم آخر أثبت وأرقى وأبقى من الحياة الدنيا.

خامساً : في الارض وما عليها

لو تأمل الانسان ما في الأرض من بحار وما فيها من عالم الأسماك المختلفة العجيبة الأشكال والالوان، فلن يسعه إلا الايمان بالله، ويقول ابن القيم: فلو سألت الأرض من فرق أجزائها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بم خصا به ومن ألفي رواسيها ؟ وفتح فيها السبل واخرج منها الماء والمراعي ؟ ومن بارك فيها وقدر فيها أقواتها وأنشأ فيها حيوانها ونباتها ؟ ومن يبدأ الخلق منها ثم يعيده اليها ثم يخرجه منها ؟ ومن ذلل مسالكها ووسع أنهارها وأنبت أشجارها وأخرج ثمارها ؟ ومن بسطحها وفرشها ودحاها ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذه المسافة لمصلحتها ولينتفع بها ؟ لقالت كل ذلك صنع

---

[٢] التبيان في اقسام القرآن ص ٢٨٢ مطبعة حجازي١٣٥٢

الرب الحكيم العليم سبحانه وتعالى عما يصفون [1]

هذا ونحن نعيش في عصر التقدم العلمي حيث تمكن العقل البشري من اكتشاف أسرار الكون العجيبة ذلك الكشف العظيم الذي ان دل على شيء فانه يدل على تلك الخصائص التي أودعها الله في الآفاق، وليس للانسان فيها من عمل الا اكتشافها والانتفاع بها وصدق الله العظيم حيث يقول "سنريهم بآياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق "[2].

فاذا رأينا بعد ذلك من يتشدق بالالحاد وانكار قوة مدبرة لهذا العالم فهو أحد شخصين:

إما فاقد للعقل وإما ممن يقول فيهم الامام الغزالي :

"تجملوا باعتقاد الكفر تحيزا الى غمار الفضلاء بزعمهم وانخراطا في سلكتها وترفعا عن مسايرة والدهماء واستكفى من القناعة بأديان الآباء ظنا بأن أظهار التجلي في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال. وغفلة منهم عن أن الانتقال الى تقليد عن تقليد خرق وخبال فأية رتبة في عالم أخس من رتبة من يتجمل بترك الحق المعتقد تقليدا بالتسارع الى قبول الباطل تصديقا دون أن يقبله خبرا وتحقيقا. والبلة من العوام بمعزل عن فضيحة هذه المهواة , فليس في سجيتهم حب التكايس بالتشبه بذوى الضلالات، فالبلاهة أدنى الى الخلاص من فطانة بتراء والعمى أقرب الى السلامة من بصرية حولاء ".

سادساً : في الوجدان الانساني

الوجدان الانساني به لجوء المرء الى قوة عليا عندما يحزبه أمر وتنتابه شدة

---

[1] التبيان في أقسام القرآن ص ٢٩٨

[2] سورة فصلت آية ٥٣

أو تمر به أزمة أو يحيط به خطر. وقد وصف الله سبحانه وتعالى تلك النزعة في الانسان في غير ما آية من كتابه العزيز فقال تعالى: "واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه او قاعدا او قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون" [١]. وقال: "واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا"[٢].

ونرى في الفكر الحديث ديكارت يقول "أنا اشك اذن فأنا أفكر وما دمت أفكر اذن فأنا موجود" ثم انطلق من هذه النقطة الى الاستدلال على وجود الله تعالى فذكر دليلين :

الأول : حيث أني موجود فمن الذي أوجدني أنني لم أخلق نفسي بنفسي والا لو هبت نفسي كل الكمالات التي تنقصني فان ايجاد الكمال أيسر من تحقيق الوجود، كذلك أنا لم يخلقني مخلوق ناقص مثلي والا كان الأيسر له أن يكمل نفسه بدلا من اعطاء غيره الوجود، اذن لقدخلقني الله كامل الصفات وبمقتضى كماله المطلق هو دائم الوجود والا لأمكن أن يصور العقل أكمل منه.

والثاني : من المقرر لدى العقل أن السبب أقوى من المسبب ونحن اذا استعرضنا أفكارنا فسنجد من بينها فكرة (الكمال المطلق) وهي فكرة عظيمة الشأن المتصف بها قادرة قدرة غير محدودة وعالم علما شاملا غنى عمن سواه لا يعتريه فناء ولا تلحقه استحالة.

ومن ثم كان لابد من المعلول اذن لا يعقل أن تكون العلة في تحقق هذه

---

[١] سورة يونس آية ١٢

[٢] سورة الاسراء آية ٦٧

الفكرة عند الانسان هي فكرته هو فإن الانسان أقل شأنا من أن يكون مصدرا لتلك الفكرة. وأيضا لا يعقل أن يكون السبب في تلك الفكرة أمرا آخر أقل من ذلك المثل الأعلى

ضرورة التكافؤ بين العلة والمعلول ومن ثم كان لابد من التسليم بوجود الله كامل كمالا لاحد له عام القدرة واسع السلطات. وهو الذي خلق فينا هذه الفكرة وألهمنا اياها، واذن فالله موجود وليس في وجوده شك.

الشعور الباطني: الشعور الباطني أحدطرق المعرفة في الاسلام تلمس ذلك في قوله تعالى: " وفي أنفسكم أفلا تبصرون " [٣].

وليرى القاريء ما توصل اليه العلماء وأهل الفكر من اعجاز الآية القرانية:

أولاً: ان الآية الكريمة خلت من التكرار وفيها من التركيز والدقة والايجاز ما يعجز عنه البلغاء.

ثانياً : ان الآية الكريمة قد برئت من الابهام المسيطر على النفس في حالتيها العارفة والمعروفة

ثالثاً : ان المعرفة في الحكمة الاغريقية غير محدودة الوسائل بل من المحتمل أن تكون بطريق أو بآخر من طرق المعرفة ظاهريها أو باطنيها وحسيها أو عقليها بينما الآية الكريمة تحدد وائل المعرفة وتحصرها في في الباطنيات حين تشير بالابصار الى الشعور النفس أو الى النظر الفكري أو الابصار بالبصيرة لأن (الظرفية) قرينة مانعة من الابصار بالأعين.

رابعاً : تعبير الآية بصيغة الاستفهام الانكاري حضا على النظر العقلي

---

[٣]. سورة الذاريات أية ٢١

وتأنيبا على التقصير في التأمل ومهما يكن من شيء فان كلمة (تبصرون) من حيث هي تحتمل :

١ – معاني الابصار بالبصر.

٢ – أو الابصار بعقل مجرد عن كل روابط المادة وصلات الخارج.

٣ – أو الابصار بالبصيرة النورانية التي تكشف الحقائق متى وصلت الى درجة معينة.

ولكن الباطنية المتعينة في صدر الآية القرآنية بحرف (في) وبكلمة (أنفسكم) الدالة بذاتها على الباطن تجعل من اليقينات الحتمية عقلا أن يكون الابصار هنا :

أ – اما بالجانب الأعلى الذي لا يعتمد على الحواس من العقل البشري.

ب – واما بالشعور الانساني الذي هو ماثل في كل نفس , دون أن يستطيع أحد تعليله.

جـ – واما بتلك البصيرة النورانية[١].

ويبدو أن الآية الكريمة هدفت الى مغزى عقلي يعتمد عليه فريق من الناس لا يطمئنوا الى النظر الحسي ولا يعتمدون الا على الجردات النقية في تعقل أسمى ما تصل اليه العقول وليس عالم النفس بأضيق دائرة ولا بأقل عجائب وغرائب من عالم المشاهدة والحس فلئن كان المتأمل اللبيب يرى في مجال الطبيعة وفي آفاق الكون من عجائب الصنع ودلائل القدرة ما يقف أمامه حائرا مأخوذا ثم يعود بعد أن يفيق من سبحاته مؤمنا عميق الايمان.

---

[١] انظر المعرفة عند مفكري المسلمين. الدكتور غلاب

فمراقبة النفس وملاحظة ما يجرى في داخلها والتعرف على غرائزها وطبائعها ونزعهاتها وميولها تمكن صاحبها أن يعلم الحقائق الكبرى في الحياة. وكل دعوة تخاطب النفس تكون هذه الدعوة في أشد الحاجة الى معرفة النفس، وكلما ازدا الانسان علما بنفسه ووقوفا على ما يمرضها وما يصحها وما تقبل وما ترفض كان أقدر على تهذيب أخلاقه. ولقد عرض القرآن الكريم لهذه القضية الكبرى في مواضع كثيرة، جاء في سورة فصلت قوله تعالى : "سنريهم آياتن في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنهم الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " [1]. فكانت هذه الآية الكريمة توجيها لأنظار غفلت عن قدرة الله ولعقول ضلت الطريق الأقوم. ولئن كان أكثر العلماء حملوا (آيات الأفاق والأنفس) على ما يتصل بالدعوة والقرآن والايمان بالله فان الآية مطلقة وهي تنبيه للغافلين على النظر في ملكوت الله وعلى البحث في آفاق الانسانية. ثم نزلت آية الذرايات " وفي انفسكم افلاتبصرون " فكانت أدل عل التنبيه بل على التعنيف وقد سبقها قوله تعالى " وفي الأرض أيات للموقنين "[2]، وجاء بعدها " وفي السماء رزقكم وما توعدون فهو رب السماء والأرض انه لحق مثل ما انكم تنطقون " [3].

ففي الأرض آيات وفي الانفس آيات ولكنها ليست آيات للغافلين عن عجائب صنع الله ولا لمرضى القلوب ضعاف الفهم بل هي آيات واضحات للذين ينظرون فيمعنون النظر ويقبلون على تعرف ما أودع الله في عالمهم (الظاهر والباطن) بوجدان صادق ونفوس راغبة في الوصول إلى أقصى درجات

---

[1] سورة فصلت آية ٥٣

[2] سورة فصلت آية ٥٢

[3] سورة الذرايات آية ٣٣

اليقين، ولعل النظر في ظواهر النفوس من اختلاف الألسن والألوان ومن دقائق التركيب في الخلقة وعجائب اللطف في الحواس ووظائفها التي لا يكاد التأمل فيها ينتهي الى غاية إلا لاح للناظر غايات أخرى، وهكذا يتضح أن الغرض من التفكر في النفس والتبصر في شئونها إنما هو الوصول الى الحقيقة الكبرى وهي خلق الله سبحانه وتعالى لهذا الكون وما فيه.

ومن هنا كانت المعرفة في ظلال الاسلام أساس كل طريق، فمعرفة الله أصل وما عداها من المعارف فروع عنها والوسيلة الى معرفة الله هي معرفة آياته في الكون وفي النفس، وبناء على معرفة الانسان نفسه يكون الانسان قد عثر على دليل وجود المبدع في داخل نفسه.

المعقولات المحضة

المعقولات المحضة من طريق المعرفة واذا كان الباحث يمكنه العثور في الآية الكريمة "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" على طريق الشعور النفسي كوسيلة من وسائل المعرفة كذلك يمكن النظر في الآية بطريق المعقولات المحضة الخالصة التي لا يدركها الا الصفوة من المفكرين فيغلق الباحث عندها أعين المادة والذهن المعتمد على الحواس والشعور النفسي ويفتح عين العقل النقي لينفذ بواسطة نوره الى ما وراء حجب المرئيات فيتفكر في ملكوت المعقولات والذي لايقاس به ملك المحسوسات لأن النسبة بينهما منعدمة بالطبع.

والمعقول هو إما معقول على سبيل الوجود وإما معقول على سبيل اللاوجود. والانسان يدع اللاموجود جانبا ويتأمل في الموجود فيتبين له أنه:

١ – اما موجود على سبيل الامكان. ٢ – واما موجود على سبيل الوجوب.

وأن الممكن هو ما استوى فيه طرفا الوجود واللاوجود وأن مستوى الطرفين

لا يرجح فيه طرف على الآخر الا بمرجح، ويتسلسل ذلك الى غير النهاية[1].

البديهات العقلية

هي أيضا من طرق المعرفة، وهي قضايا عامة شديدة العموم يضعها العقل ويسلم بصدقها

وتبدو كأنها مركوزة في العقل فهي ضرورية لا يمكن اقامة البرهان على صدقها، مثل :

أ – الكميتان المساويتان لثالثة متساويتان.

ب – اذا أضيفت كميات متساوية الى أخرى متساوية كانت النتائج متساوية.

والبديهات تستخدم كمقدمات لاستباط النتائج التي تترتب عليها، وقد اختلف الباحثون في نشأتها، فذهب العقليون الى أن البديهات قواعد عامة وضرورية فلا يستطيع العقل انكارها والا تناقض، وذهب التجريبيون الى أنها من أصل حسي وأنها مكتسبة بالملاحظة والتجربة.

وعلى كل حال فهذا الطريق يعد في عالم الفكر المنطقي المحض أسمى الطرق وأقربها الى الامكان الانساني وهو منبثق من داخل النفس، ومؤسس على الحق الواضح الثابت، وهو الفكر المحتوي في آية " وفي أنفسكم أفلا تبصرون ".

ومجمل هذا الفكر أن كلا من المؤمن والجاحد والمرتاب يصدر فيما يذهب اليه عن فكر واذا كان الانسان يفكر فهو موجود واذا كان وجود فلننظر :

١ – إما أن يكون قد أوجد نفسه.

٢ – وإما ان يكون قد أوجده غيره.

---

[1] المعرفة عند مفكري المسلمين للدكتور محمد غلاب ص ١٣٦ طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ولنفرض أن الانسان قد أوجد نفسه فلماذا كان ناقصا وهو يشتاق الى الكمال ؟

ويجاب عن هذا التساؤل بأن الانسان لم يستطع تحقيق الكمال لأنه عاجز واذا كان الأنسان عاجزا عن تحقيق الكمال النفسي فهو ولا شك عاجز عن خلق نفسه، إذن فالذي خلق الانسان وأوجده هو غير الانسان وهذا الغير لا يمكن أنم يكون أقل من الانسان كمالا لأن الناقص لن يخلق ما هو أكمل منه لاستحالة اشتمال المعلول على أكثر مما في علته.

كذلك الذي خلق الانسان لا يمكن أن يكون مماثلا له لبطلان الترجيح بلا مرجح، اذن الذي خلق الانسان هو أكمل ولا يمكن أن تكون هذه الأكملية نسبية لنقص النسبي دائما اذا قيس بما هو فوقه اذن : لم يبق الا المطلق وهو الاحد المراد اثباته.

الطريق التنسكي

وهو يختلف عن الطرق التي سبق بيانها لأن المجهود فيه لا يطلب من الذهن المعتمد على الحواس ولا من العقل النقي، وإنما يطلب بذله من النفس للتحرر من ربقة الشهوات والتخلص من عبودية الرغبات والتعلق بالملأ الأعلى، وهذا هو الذكر الذي يقول به الصوفية.

وتلك حالات لا يصل اليها الا من اجتاز الحواجز والحجب السميكة وانخلع من غريز العقلاء.

فاذا تم لانسان ذلك أصبح جديرا بتلقي مخاطبة الحق الأعلى بعين البصيرة النورانية أو اللطيفة الربانية التي ليست في حاجة الى الحس لترى.

وإذا أراد الانسان أن يرتقي في معراج الدقة والاتقان وجد أن طرق المعرفة

كلها قد وجدت في آية واحدة من آيات القرآن الكريم ، وهذه الآية الجامعة لطرق المعرفة هي قوله تعالى : " سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد " [1].

ولا شك أن ما في الآفاق هو ماينظرون اليه ثم ما ينظرون اليه ثم ما ينظرون فيه أو ما يشاهدونه بعين البصر ثم بعين الذهن المعتمد على الحس أو هم عالم الشهادة أو ملك السموات والأرض.

وأن ما في أنفسهم هو المدرك بالشعور الباطني أو بالعقل المجرد من كل مشاعرهم وعلائق المادة حتى يتبين لاولئك وهؤلاء أن الله هو الحق وهنا نصل الى المنزلة آلهية الحقيقة التي هو فيها دليل كل كائن وبرهان كل موجود.

المعرفة في الاسلام

الله سبحانه وتعالى هو الذي أنشأنا من العدم وتولى تربيتنا في أطوارنا المختلفة، قال تعالى: " ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" [1]. وقال تعالى: "يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك "[2]. وقال تعالى: " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون "[3].

وقد أبدع سبحانه وتعالى خلقنا وأحسن تصويرنا وتركيبنا وأعطانا في أنفسنا

---

[1] سورة فصلت آية ٥٣.

[1] سورة المؤمنون آية ١٢ – ١٤

[2] سورة الانفطار آية ٦ – ٨

[3] سورة النحل آية ٨٧

ما هو ضروري لنا وما به نصل إلى ما قدر في الحياة. وخلق لنا كل ما نحتاجه في حياتنا وما نتمتع به في دنيانا.

قال تعالى: " فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وقضبا متاعا لكم ولأنعامكم" [٤].

وقال تعالى: " والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه الا بشق الأنفس أن ربكم لرءوف رحيم والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون "[٥]. وكل من السماء والأرض سخره الله للانسانية فضلا ونعمة.

وعن أبي مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول صلى عليه وسلم: لما خلق الله تعالى العقل قال له أقبل فأقبل وأدبر فأدبر فقال: ما خلقت أحب الى منك ولا أركبك الا في أحب الخلق الي [٦]

وبنظرة تدبر وتفكر في خلق الله سبحانه وما اشتمل عليه من عظمة وجلال وما قام عليه كم أسس وقوانين هي من الدقة والتنسيق والتنظيم بحيث عجز المفكرون غن ادراك كنهها ووقفوا مشدوهين أمام كمالها.

بهذه النظرة والمجردة من الهوى ندرك أن الله سبحانه هو الذي أعطى كل شيء خلقه ودبر من الكون كل ذربة وأنه وحده الذي يستحق أن تعنو له الجباه وتخر له الرءوس ساجدة وينقاد له الخلق معظمين مكبرين.

---

[٤] سورة عبس آية ٢٤ – ٢٨ , القضب : مثل البطيخ والشمام. والأب : ما ترعاه البهائم.

[٥] سورة النحل آية ٥ – ٨

[٦] تيسير الوصول ج ١ اخرجه رزين.

قال تعالى: "وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم" [1].

وقصة البشرية فيها مساوىء كثيرة زلت فيها أقدام البشر وضلت عقولهم وكثيرا ، وهذان مشهدان صورهما القرآن الكريم لنا لندرك أن الذين حاولوا انكار الله سبحانه وتعالى لم يكن لهم بذلك أدنى برهان، وأنهم حين يشعرون أنهم عجزوا وضعفوا وصغروا أمام الادلة المنطقية الدامغة يردون على الدليل بالقوة وعلى البرهان بالسطو وعلى بروق الحق بأساليب الظالم القاسية الحقيرة.

يقول تعالى " ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه أن أتاه الله الملبك اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت " قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم : فان اله يأتي بالشمس من المشرق , فأت بها من المغرب. فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين) [٢].

عاش ابراهيم الخليل في زمن عصيب كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال. وقد ظهر في زمانه ذلك الملك الجبار المتمرد الذي اعى لنفسه الربوبية ونازع الله في عظمته وسلطانه فأدعى أنه الاله من دون الله. وهذا الجبار يسمى (النمرود بن كنعان) وكان أحد ملوك الدنيا الأربعة

فانه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران أما المؤمنان فهما ذو القرنين الذي ذكره القرآن في سورة الكهف وسليمان بن داود عليهما السلام.

و أما الكافران فهما (النمرود) و(بختنصر) وأما غيرهما فلم يملك الدنيا وانما ملك بلدا أو بلادا منها مثل (فرعون) فقد كان يملك أرض مصر.

---

[١] سورة الروم آية ٢٧

[٢] سورة البقرة آية ٢٥٨

وقد ذكر المؤخرون أن (النمرود) هذا قد استمر في ملكه أربعمائة سنة وكان قد طغى وبغى وتكبر وتجبر وادعى لنفسه الربوبية فناظره الخليل عليه السلام فسفه عقله وأبطل حجته وألقمه الحجر كانت أول مناظرة معه أنه حينما دخل عليه الخليل سأله النمرود : من ربك يا ابراهيم.

وهل لك رب غيري ؟ فأجابه الخليل بكلام العقل والايمان. قال " ربي الذي يحي ويميت " أي انه الاله العظيم القادر الذي يحيي الانسان من العدم ثم يميته ثم يبعثه فهو على كل شيء قدير.

فالاحياء والاماته مظه من مظاهر قدرة الله ولكن النمرود السفيه الاحمق ضحك منه ساخرا وعارضه بقوله : (أنا أحيي وأميت) , أي أنني استطيع ان افعل ما يفعله الهك قال له : وكيف ؟ قال: انتظر فدعى حاجبه قال له: اذهب فأتني برجلين من السجن قد استوجبا القتل أي حكم عليهما بالاعدام فذهب الحاجب فأتى له برجلين فوقفا بين يديه فأمر الجلاد ان يضرب عنق أحدهما فضربه فمات فقال النمرود: هذا أمته وأمر باطلاق سراح الثاني فأطلق فقال : هذا أحييته

وهكذا بمنتهى السخف والحماقة أراد أن يظهر قدرته على الاحياء والاماتة , اللتان هما من خصائص قدرة الله ومن صفاته الأزلية وبهذه الطريقة السخيفة الهزلية أعدم انسانا فأماته وعفا عن آخر فأحياه وذلك هو منتهى الجهل والغباء.

فقال له الخليل: (ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) وهنا الحجة الدامغة التي لا تنفع معها المجادلة والمكابرة لأنها أمر بين ان كنت حقا الها تستطيع أن تفعل كل شيء فغير نظام الكون وغير نظام الحياة واطلع الشمس من المغرب. وهنا انقطع الجدل وبهت الذي كفر.

قضية التوحيد

التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شيء من الشرك هو رسالة الأنبياء والرسل الى الناس كافة، على طول حياتهم الانسانية. لتحقق لهم سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة وليطهروا أنفسهم مما تحمله عقيدة الاشراك مما يلوث النفوس وينحط بها عن المستوى اللائق بالانسان الذي خلقه الله ليكون مرتفعا عن الطبيعة الحيوانية المنحطة. والبشرية في أطوارها المختلفة كثيرا ما ألغت عقولها ونزلت عن المكانة التي اختارها الله لها فتوهمت أنها أقل شانا من أن يكون اتصالها بالله مباشرا فاتخذ الناس آلهة غير الله من البشر أو الحجر أو النار أو الشجر او غيرها فبعدوها وتقربوا اليها لقربهم هذه الآلهة بدورها الى ربهم وتقضى لهم حاجاتهم وتلبي لهم رغباتهم. وقالوا : "ما نعبدهم الي ليقربونا الى الله زلفي " [١].

وقضية التوحيد هي القضية التي عانى من أجلها المرسلون ما عانوا من المتاعب والمشقات مع قومهم[٢] وهذه آيات تعطي فكرة واضحة عن الخطر الذي سارت فيه قضية التوحيد , قال الله تعالى : " لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم " [٣].

وقال تعالى: "و الى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره " [٤].

---

[١] سورة المزمل اية ٣

[٢] الدين والحياة نشرة ٣٣

[٣] سورة الأعراف آية ٥٩

[٤] سورة الأعراف آية ٧٣

وقال تعالى: " والى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره " [٥]

وقال تعالى في شأن ابراهيم " اذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون. أئفكا آلهة دون الله تريدون"[٦]. وقال تعالى: "ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير"[٦].

وعن ابن مسعود قال : قلت يارسول الله , أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك [٧].

وعندما دعا النجاشي جعفر بن أبي طالب بعد الهجرة الى الحبشة ليكلمه عن الدين الاسلامي الذي جاء به مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام.

قال جعفر : لقد بعث الله الينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا أن نعبد الله حده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا.

مقتضيات قضية التوحيد

المؤمن الذي ارتبط بالله وحده لا شريك له وعرف فضل الله عليه وآمن بأنه في حاجة الى رحمته ورعايته في كل لحظة من حياته وأنه بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

---

[٥] سورة الأعراف آية ٨٥

[٦] سورة الصافات آية ٨٥ , ٨٦.

[٦] سورة فاطر آية ١٤

[٧] رواه البخاري ومسلم.

فالمؤمن الذي يؤمن بكل ذلك تراه مندفعا الى العمل بصدق الايمان والتفاني في سبيل أداء الرسالة

قال الله تعالى : " ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله "[١] وقال تعالى : " انما يؤم بآيتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون " [٢]. وقال تعالى : " قل انما أنا بشر مثلكم يوحي الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل ربه عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا"[٣].

و قال تعالى : " انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم " [٤].

الى غير ذلك من الايات القرانية التي تتحدث عن فاعلية الايمان في قلوب المؤمنين.

ولقد أثبت التاريخ أن الذين تربوا في مدارس الأنبياء وأشربوا تعاليم السماء ورشفوا من رحيق النبع الصافي وهم وحددهم الذين صلحت بهم الحياة واعتدل في أيديهم ميزان الحق والعدل والخير. وافاقت الانسانية لترى وتسمع نمطا جديدا من الناس يعطي من نفسه ليسعد غيره ويرضى بالهلاك لذاته كي تحيا وتنهض الأمة. فهذا مؤمن من آل فرعون يقف وحده في معارضة الباطل والظلم والفساد فيقول لقومه وقد تشاوروا في قتل موسى عليه السلام.

---

[١] سورة البقرة آية ١٦٥

[٢] سورة السجدة آية ١٦

[٣] سورة الرحمن آية ٤٦

[٤] سورة الانفال الايات ٢ – ٤

"اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعله وان يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب "[٥].

ولم يكتف هذا الرجل المؤمن بهذا بل انتقل من الدفاع عن الفرد الى قضية الأمة فبدد المخاوف وينصح القوم ويحذر من العاقبة

"يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الاربض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا "

ولكنه وجد القوم قد تحجرت مشاعرهم وأعمتهم المناصب وأنستهم آلام الناس في المجتمع وكان حكيما رشيدا شجاعا وصارحهم بالأمر..

" وقال الذي آمن : ياقوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد ".

يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار. من عمل سيئة فلا يجزي الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.

ويا قوم مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار , لا جرم انما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا الى الله وأن المسرفين مهم أصحاب النار. فستذكرون ما اقول لكم وأفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد.

فمنطق المؤمن الشجاع نور يسري وشعاع يهدي الى طريق الحق وتاريخ

---

[٥] سورة غافر اية ٢٨

مشرف للانسانية كلها مليء بالحيوية المدهشة والفاعلية على التغييير.

والايمان حين تخالط بشاشته القلوب وتستعذب حلاوته الأرواح فانه يملك على صاحبه مشاعره ووجدانه ويحدد طريقه وآماله فلا تستطيع قوى الشر مهم طغت وبغت وتجبرت أن تنال من ايمان المؤمنين وان نالت من أجسادهم وأموالهم.

الفهرس

تقديم: الدين والإيمان والمعرفة.. د. فرج مُحَمَّد عبد الرحمن ٥

الدّين عندَ اللهِ والأنبياء.. فرج الله أبو العلا ١١

الإيمان في القرآن الكريم.. مُحَمَّد رجاء عبد المتجلي ٧٨

المعرفة في ظل الاسلام.. د.عبد الحكيم المغربي ١٤٤